

هذا الحبيب

مختصر سيرة الرسول ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَقُوقُ الطَّبِيعِ مَحْفُوظَةٌ



الطبعة الأولى

١٤٣٨ هـ - ٢٠١٦ م

رقم الإيداع

٢٠١٦/٢٦٤٥٥

دَامُ الْمَجْدِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

ش عمر بن عبد العزيز - خلف مديرية الزراعة - طنطا

ت: ٠٤٠٣٢٧٤٠٢١ - ٠١٠٠٤٩٧٧١٤٢ - ٠١١١٣٥٧٥٩٩٥

E-mail: elmagdbook@yahoo.com

هذا الحبيب
مختصر سيرة الرسول ﷺ

جمع وترتيب

عبد الرحمن بن محمد المصري





مقدمة

الحمد لله الذي قال في كتابه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين، أما بعد.

فهذا مختصر لسيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتكون بداية لمن يريد أن يتعرف على سيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فكثير من المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله إذا سألته عن لاعب كرة أو ممثل يقول لك اسمه كذا وعمره كذا ويحب كذا ويعرف اسم زوجته وأولاده.

ثم يقلد لاعب كرة أو فناناً في ملبسه ومأكله وحلق شعره ويقلده في كل شيء. وإذا سألته ماذا تعرف عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تجده لا يعرف نسبه كاملاً ولا يعرف أزواجه وأولاده، فضلاً عن سيرته وأخلاقه العطرة، فضلاً عن أحاديثه، فهل هذا محب؟

الجواب: لا، لأن المحب يعرف كل شيء عن حبيبه ثم يتبعه في كل شيء لأنه محب.

ونسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته أن يرزقنا مرافقة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أعلى الجنة بغير حساب ولا سابقة عذاب، إنه ولي ذلك والقادر عليه وآخر دعوانا أن الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

النسب الشريف

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وعدنان من ولد إسماعيل عليه السلام [زاد المعاد].

تاريخ الميلاد

ولد عام (٥٧١) ميلادياً، عام الفيل.

أسماءه صلى الله عليه وسلم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ لِي أَسْمَاءً أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَنَا أَحْمَدُ وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكُفْرَ وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ» [رواه مسلم].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ وَالْمُقَفَّى وَالْحَاشِرُ وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ وَالْمَلْحَمَةِ» [رواه أحمد، وحسنه الألباني].

الكنية

كان يُكنى بأبي القاسم صلى الله عليه وسلم.

أزواجه صلى الله عليه وسلم

خديجة بنت خويلد - سودة بنت زمعة - عائشة بنت أبي بكر - حفصة بنت عمر بن الخطاب - زينب بنت خزيمة - أم سلمة - زينب بنت جحش - جويرية

بنت الحارث - أم حبيبة - صفية بنت حُيَّ بن أخطب - ميمونة بنت الحارث.

أولاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الأبناء: القاسم - عبد الله - إبراهيم.

البنات: رقية - زينب - أم كلثوم - فاطمة.

صفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أزهر اللون (أبيض مستنير مائل إلى الحمرة)، واسع الجبين، أدعج العينين (الدَّعَج: شدة سواد العينين مع سعتهما، وقيل أكحل)، أهدب الأشفار (طويل الأشفار)، مُفلج الأسنان، كث اللحية تملأ صدره، عظيم المنكبين، رحب الكفين والقدمين، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير المتردد، في شعره حجونة - أي تَشَنُّ قليل -، وكان شعره أسود اللون وكان ضخم الرأس، ضخم الكراديس - أي كل عظمتين التقتا في مفصل، أراد أنه جسيم الأعضاء -، وكان سواء البطن والصدر، أشعر المنكبين والذراعين وأعالي الصدر، طويل الزندين، رحب الراحة، منهوس العقبين - أي: قليل لحم العقب -، بين كتفيه خاتم النبوة كَزَرُّ الْحَجَلَةِ، وكبيضة الحمامة، وكان إذا مشى كأنما تُطوى له الأرض، وكان إذا تكلم كأن النور يخرج من ثناياه، وكان وجهه كالقمر ليلة البدر، حسن الصوت، سهل الخدين، ضليع الفم، وكان يسدل شعر رأسه ثم فرقه، وكان يرحله ويسرح لحيته، ويكتحل بالإثمد كل ليلة في كل عين ثلاثة أطراف عند النوم، من رآه هابه، ومن خالطه أحبه.

[الشَّامِلُ المَحْمُودِيَّة، وقفات تربوية مع السيرة النبوية] [كتاب علمني رسول الله]

نكاح عبد الله لآمنة

قال ابن اسحاق: أخذ عبد المطلب بيد عبد الله حتى أتى به وهب بن عبد منان بن زهرة وهو يومئذ سيد بني زهرة نسباً وشرفاً، فزوجه ابنته آمنة بنت وهب، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً.

فزعموا أنه دخل عليها حين أملكها مكانه فوقع عليها، فحملت برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [السيرة النبوية بتحقيق سامي أنور جاهين].

نور يخرج من آمنة عند حملها برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ويزعمون - فيما يتحدث الناس والله أعلم - أن آمنة ابنة وهب أم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت تحدث:

أنها أُتِيَتْ، حين حملت برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولِي: أعيذه بالواحد، من شر كل حاسد، ثم سميه محمداً، ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام.

ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب، أبو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هلك، وأم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حامل به.

مولد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإرضاعه

قال ابن إسحاق: ولد رسول الله يوم الاثنين، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، عام الفيل.

قال ابن إسحاق: حدثني المطلب بن عبد الله بن قيس بن مخزومة عن أبيه عن جده قيس بن مخزومة قال: ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل، فنحن لدان^(١).

قال ابن إسحاق: وحدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة الأنصاري، قال: حدثني من شئت من رجال قومي، عن حسان بن ثابت، قال: والله إني لغلام يفعة ابن سبع سنين أو ثمان، أعقل كل ما سمعت، إذ سمعت يهوديًا يصرخ بأعلى صوته على أطمه^(٢) بيثرب: يا معشر يهود، حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له: ويلك! ما لك؟ قال: طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به.

قال محمد بن إسحاق: فسألت سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت فقلت: ابن كم كان حسان بن ثابت مقدم رسول الله ﷺ المدينة؟ فقال: قدمها رسول الله ﷺ، وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، فسمع حسان ما سمع وهو ابن سبع سنين^(٣).

قال ابن إسحاق: فلما وضعت أمه ﷺ أرسلت إلى جده عبد المطلب: إنه قد ولد لك غلام، فأتته فانظر إليه فأتاه فنظر إليه، وحدثته بما رأت حين حملت به، وما أمرت به أن تسميه.

(١) حديث حسن: مجموع طرقه من كلام قيس بن مخزومة. أخرجه الحاكم في مستدركه.

(٢) أطمه: أي مكان عال. أو على حصن.

(٣) ذكره ابن حجر رحمه الله تعالى وأسنده في تهذيب (٢/٢١٦) بإسناد حسن لا بأس به.

فیزعمون أن عبد المطلب أخذه، فدخل به الكعبة فقام يدعو الله، ويشكر له ما أعطاه، ثم خرج به إلى أمه فدفعه إليها، والتمس لرسول الله ﷺ الرضعا.

قال ابن إسحاق: فاسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر، يقال لها: حليلة ابنة أبي ذؤيب^(١).

واسم أبيه الذي أرضعه ﷺ: الحارث بن عبد العزيز بن رفاعة بن ملان بن ناصرة بن فضية بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن.
قال ابن هشام: ويقال: هلال بن ناصرة.

قال ابن إسحاق: وإخوته من الرضاعة: عبد الله بن الحارث، وحذافة بنت الحارث؛ وهي الشيماء، غلب ذلك على اسمها فلا تعرف في قومها إلا به. وهم لحليمة بنت ذؤيب عبد الله بن الحارث، أم رسول الله ﷺ^(٢) ويذكرون أن الشيماء كانت تحضنه مع أمها إذا كان عندهم.

قال ابن إسحاق: وحدثني جهم بن أبي جهم مولى الحارث الجمحي عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، أو عمن حدثه عنه، قال:

كانت حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية أم رسول الله ﷺ التي أرضعته، تحدث: أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه، في نسوة من

(١) وهي السعدية واشتهرت بذلك (حليمة السعدية) لأنها من بني سعد.

(٢) انظر في ترجمتها: الإصابة (١١٠٥٦) أسد الغابة (٦٨٥٥). الاستيعاب (٣٣٣٦).

بني سعد بن بكر، تلتمس الرضعاء، قالت: وذلك في سنة شهباء، لم تبق لنا شيئاً^(١) قالت: فخرجت على أتان لي قمراء^(٢)، معنا شارف لنا^(٣)، والله ما تبض بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع ما في ثديي ما مغنيه وما شارفنا ما يغذيه.

قال ابن هشام: ويقال يغذيه، ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك، فلقد أدمت^(٤) بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه، إذا قيل لها: إنه يتيم، وذلك إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمه وجده؟ فكنا نكرهه لذلك^(٥)، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم، فلاخذه، قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة، قالت: فذهبت إليه فأخذه، وما حملني على أخذه إلا أنني لم أجد غيره.

بركة رسول الله ﷺ على بني سعد

قالت: فلما أخذه رجعت به إلى رحلي، فلما وضعت في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي ثم ناما،

(١) شهباء: أي ليس فيها مطر فاستنفذت المخزون.

(٢) قمراء: من القمرة. وهي شدة البياض.

(٣) شارف: يستطلع الطريق يستشرفه من أعالي.

(٤) أدمت: أي سال منها الدم.

(٥) يقصدون مطلق اليتيم لأن الأمر على الأغلب كما ذكر.

وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارقنا تلك، فإذا إنها لحافل، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا رياء وشبعا فبتنا بخير ليلة، قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمين والله يا حليلة لقد أخذت نسمة مباركة، قالت: فقلت: والله إني لأرجو ذلك، قالت: ثم خرجنا وركبت أنا أتانتي، وحملته عليها معي، فوالله لقطعت بالركب؛ ما يقدر عليها شيء من حمرهم، حتى إن صواحي ليقلن لي: يا ابنة أبي ذؤيب، ويحك! أربعي^(١) علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله، إنها لهي هي، فيقلن: والله إن لها لشأنا، قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضا من أرض الله أجذب منها، فكانت غنمي تروح عليّ حين قدمنا به معنا شباعا لبنًا، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة من لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياغا ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعا لبنًا، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته، وكان يشب شبابًا لا يشبه الغلمان^(٢)، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا جفرا^(٣).

قالت: فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه وقلت لها: لو تركت بُنيّ عندي حتى يغلظ، فإني أخشى عليه وباء مكة، قالت: فلم نزل بها حتى رده معناه [قال الإمام الذهبي في السيرة إسناده جيد وله شواهد].

(١) أربعي: تمهلي وانتظرينا.

(٢) أي في نموه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(٣) أي: عظيم الجسد عظيم جوف الصدر متميز الخلقة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

حادثة شق صدر النبي ﷺ

قالت: فرجعنا به، فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه لفي بهم لنا خلف بيوتنا، إذ أتانا أخوه يشتد، فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعا، فشقا بطنه، فهما يسوطانه^(١). قالت: فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدناه قائماً منتقعاً^(٢) وجهه، قالت: فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا له: ما لك يا بني؟ قال: «جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني وشقا بطني، فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو»، قالت: فرجعنا به إلى خبائنا^(٣).

قالت: وقال لي أبوه: يا حليلة، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقه بأهله قبل أن يظهر ذلك به، قالت: فاحتملناه فقدمنا به على أمه، فقالت: ما أقدمك به يا ظئر^(٤)، وقد كنت حريصة عليه، وعلى مكثه عندك؟ قالت: فقلت قد بلغ الله بابني وقضيت الذي عليّ وتخوفت الأحداث عليه، فأدبته إليك كما تحبين، قالت: ما هذا شأنك، فاصدقيني خبرك، قالت: فلم تدعني حتى أخبرتها، قالت: أفتخوفت عليه الشيطان؟ قالت: قلت: نعم، قالت: رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء لي قصور بصرى من أرض الشام، ثم حملت به، فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف عليّ ولا أيسر منه، ووقع حين ولدته وإنه لو اضع

(١) يقال: أسطت اللبن أو الدم غيرهما أسوطه، إذا ضربت بعضه ببعض (الروض الأنف) السهيلي (١/ ١٨٨)

(٢) منتقعاً وجهه: أي عليه الماء من العرق.

(٣) الخباء: بيت من وبر أو شعر أو صوف. يكون على عمودين أو ثلاثة.

(٤) الظئر: الناقة العطوف التي تحن لولد غيرها فتدر له اللبن. واستعير للمرأة.

يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء، دعيه عنك وانطلقى راشدة.

قال ابن إسحاق: وحدثني ثور بن يزيد عن بعض أهل العلم، ولا أحسبه إلا عن خالد بن معدان الكلاعي: أن نفرًا من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالوا له: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك؟ قال: «نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخى عيسى، ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام، واسترضعت فى بنى سعد بن بكر، فبينما أنا مع أخ لى خلف بيوتنا نرعى بهمًا لنا، إذ أتانى رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجًا، ثم أخذانى فشقا بطنى واستخرجا قلبى، فشقاها، فاستخرجا منى علقة سوداء فطرحها، ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلج حتى أنقياه، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته، فوزننى بهم فوزنتهم، ثم قال: زنه بمائة من أمته فوزننى بهم فوزنتهم، ثم قال: زنه بألف من أمته، فوزننى بهم فوزنتهم، فقال: دعه عنك فوالله لو وزنته بأمته لوزنتها»^(١).

قال ابن اسحاق: وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «ما من نبى إلا وقد رعى الغنم»، قيل: وأنت يا رسول الله؟ قال: «وأنا»^(٢) [السيرة لابن هشام].

ويستفاد من حادثة شق الصدر تطهير صدر النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حظ الشيطان وإعداده للعصمة من الشر وعبادة غير الله فلا يحل فى قلبه إلا التوحيد الخالص وقد دلت أحداث صباه على تحقيق ذلك فلم يرتكب إثماً ولم يسجد لصنم رغم إنتشار ذلك فى قريش [السيرة النبوية الصحيحة].

(١) مسلم فى صحيحه (١٤٧-٢٦١). وأورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٢/ ٢٧٥).

(٢) أخرجه البخاري فى صحيحه [٢٦٢٢] [٣٥٤٣]، وعند مسلم فى صحيحه [١٢٦١].

وفاة أمنة وحنان جده عبد المطلب بعدها

قال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن أم رسول الله ﷺ أمنة توفيت ورسول الله ﷺ ابن ست سنين بالأبواء، بين مكة والمدينة، كانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار، تزيّره إياهم، فماتت وهي راجعة إلى مكة.

قال ابن إسحاق: فكان رسول الله ﷺ مع جده عبد المطلب بن هاشم، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، قال: فكان رسول الله يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب، إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني فوالله إن له لشأناً، ثم يجلسه معه على الفراش، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع [وقد ضعفه بعض أهل العلم]

رثاء عبد المطلب من الشعر

فلما بلغ رسول الله ﷺ ثماني سنين مات عبد المطلب بن هاشم، وذلك بعد الفيل بثمان سنين.

قال ابن إسحاق: حدثني العباس بن عبد الله بن معبد بن العباس عن بعض أهله: أن عبد المطلب توفي ورسول الله ﷺ ابن ثماني سنين.

أبو طالب كفيل رسول الله ﷺ

وكان رسول الله ﷺ بعد عبد المطلب مع أبي طالب، وكان عبد المطلب فيما يزعمون يوصي به عمه أبا طالب، وذلك لأن عبد الله أبا

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبا طالب أخوان لأب وأم، أمهما فاطمة بنت عمرو بن عبد بن عمران بن مخزوم.

حلف الفضل

قال ابن هشام: وأما حلف الفضول فحدثني زياد بن عبد الله البكائي عن محمد بن إسحاق قال: تداعت قبائل من قريش إلى حلف، فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي لشرفه وسنه، فكان حلفهم عنده: بنو هاشم، وبنو المطلب، وأسد بن عبد العزيز، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة، فتعاقدوا وتعاهدا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، فسمت قريش ذلك الحلف «حلف الفضول»^(١).

قال ابن اسحاق: فحدثني محمد بن زيد المهاجر بن قنفذ التيمي أنه سمع طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري يقول: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لقد شهدت في عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت»^(٢).
[كتاب السيرة النبوية لابن هشام]

حرب الفجار

وحين كان عمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشرين سنة - وقعت في سوق عكاظ حرب بين قبائل قريش وكنانة من جهة، وبين قبائل قيس عيلان من جهة أخرى، اشتد

(١) أخرجه البيهقي في سننه.

(٢) حلف الفضول: الفضول جمع فضل. وهي أسماء مؤسسي الحلف: الفضل بن وداعة. والفضيل بن شراة والفضل بن قطاعة. «الروض الأنف. السهيل (١/ ١٥٥)».

فيها البأس، وقتل عدد من الفريقين، ثم اصطلحوا على أن يحصوا قتلى الفريقين، فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد، ووضعوا الحرب، وهدموا ما وقع بينهم من العداوة.

وسميت هذه الحرب بحرب الفجار لأنهم انتهكوا فيها حرمة حرم مكة والشهر الحرام، والفجار أربعة: كل في سنة، وهذه آخرها، وانتهت الثلاثة الأولى بعد خصام واشتجار طفيف، ولم يقع القتال إلا في الرابع فقط [كتاب روضة الأنوار].

بحيرى الراهب وبشارات النبوة

قال ابن إسحاق: ثم إن أبا طالب خرج في ركب تاجرًا إلى الشام، فلما تهيأ للرحيل وأجمع المسير صب به رسول الله ﷺ فيما يزعمون فرق له، وقال: والله لأخرجن به معي، ولا يفارقني، ولا أفارقه أبدًا، أو كما قال، فخرج به معه، فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام، وبها راهب يقال له: بحيرى في صومعة له، وكان إليه علم أهل النصرانية ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط راهب، إليه يصير علمهم عن كتاب فيها فيما يزعمون يتوارثونه كابراً عن كابر.

فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى، وكانوا كثيراً ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى كان ذلك العام، فلما نزلوا به قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً، وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو في صومعته، يزعمون أن رأى رسول الله ﷺ، وهو في صومعته، في الركب حين أقبلوا، وغمامة تظله من بين القوم، قال: ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريباً منه، فنظر إلى الغمامة

حين أظلت الشجرة، وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها، فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته، وقد أمر بذلك الطعام، فصنع ثم أرسل إليهم، فقال: إني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش، فأنا أحب أن تحضروا كلكم، صغيركم وكبيركم، وعبدكم وحركم: فقال له رجل منهم: والله يا بحيرى إن ذلك لشأنا اليوم، فما كنت تصنع هذا لنا، وقد كنا نمر بك كثيراً، فما شأنك اليوم؟ قال له بحيرى: صدقت، قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلوا منه كلكم، فاجتمعوا إليه، وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحدثه سنه في رحال القوم تحت الشجرة.

فلما نظر بحيرى في القوم لم ير الصفة التي يعرف ويجد عنده، فقال: يا معشر قريش، لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي، قالوا له: يا بحيرى، ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام، وهو أحدث القوم سناً، فتخلف في رحالهم، فقال: لا تفعلوا، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم، قال: فقال: رجل من قريش مع القوم: واللات والعزى، إن كان للؤم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيتنا.

ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم، فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده، قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا، قام إليه بحيرى، فقال له: يا غلام، أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرني عما أسألك عنه، وإنما قال له بحيرى ذلك، لأنه سمع قومه

يحلفون بهما، فزعموا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: «لا تسألني باللات والعزى شيئاً، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما» فقال له بحيرى: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال له: «سلنى عما بدا لك» فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيبته وأموره، فجعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخبره، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته، ثم نظر إلى ظهره، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده [المصدر السابق].

حياة العمل

معلوم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولد يتيماً ونشأ في كفالة جده ثم عمه، ولم يرث عن أبيه شيئاً يغنيه، فقد رعى الغنم مع إخوته من الرضاعة في بني سعد، ولما رجع إلى مكة رعاها لأهلها على قراريط^(١)، والقيراط جزء يسير من الدينار: نصف العشر أو ثلث الثمن منه، قيمته في هذا الزمان عشرة ريالات تقريباً.

ولما شب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبلغ الفتوة كان يتجر، فقد ورد أنه كان يتجر مع السائب بن أبي السائب، فكان خير شريك له، لا يجارى ولا يمارى.

وعرف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في معاملاته بغاية الأمانة والصدق والعفاف، وكان هذا هديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جميع مجالات الحياة حتى لقب بالأمين [المصدر السابق].

سفره إلى الشام وتجارته في مال خديجة

وكانت خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من أفضل نساء قريش شرفاً ومالاً، وكانت تعطي مالها للتجار يتجرون فيه على أجرة، فلما سمعت عن النبي

(١) صحيح البخاري في الإجازات، باب: رعى الغنم على قراريط.

صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرضت عليها مالها ليخرج فيه الشام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره.

وخرج رسول الله صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع غلامها ميسرة إلى الشام، فباع وابتاع وربح ربحًا عظيمًا، وحصل في مالها من البركة ما لم يحصل من قبل، ثم رجع إلى مكة، وأدى الأمانة [المصدر السابق].

زواجه من خديجة

ورأت خديجة من الأمانة والبركة ما يبهر القلوب، وقص عليها ميسرة ما رأى في النبي صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كرم الشمائل وعذوبة الخلال - يقال: وبعض الخوارق، مثل تظليل الملكين له في الحر - فشعرت خديجة بنيل بغيتها فيه، فأرسلت إليه إحدى صديقاتها تبدي رغبتها في الزواج به، ورضي النبي صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، وكلم أعمامه، فخطبوها له إلى عمها عمرو بن أسد، فزوجها عمها بالنبي صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في محضر من بني هاشم ورؤساء قريش على صداق قدره عشرون بكرة، وقيل: ست بكرات، وكان الذي ألقى خطبة النكاح هو عمه أبو طالب: فحمد الله، وأثنى عليه، ثم ذكر شرف النسب وفضل النبي صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم ذكر كلمة العقد وبين الصداق.

ثم تم هذا الزواج بعد رجوعه صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الشام بشهرين وأيام، وكان عمره إذ ذاك خمسًا وعشرين سنة، أما خديجة فالأشهر أن سنها كانت أربعين سنة، وقيل: ثمان وعشرين سنة، وقيل غير ذلك، وكانت أولًا متزوجة بعتيق بن

عائذ المخزومي، فمات عنها، فتزوجها أبو هالة التيمي، فمات عنها أيضًا بعد أن ترك له منها ولدًا، ثم حرص على زواجها كبار رؤساء قريش فأبت حتى رغبت في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتزوجت به، فسعدت به سعادة يغبط عليها الأولون والآخرون.

وهي أول أزواجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت، وكل أولاده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منها إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية [المصدر السابق].

بناء الكعبة وقصة التحكيم

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿[البقرة: ١٢٧-١٢٨].

فالقواعد: جمع قاعدة، وهي السارية والأساس، ويقول الله تعالى: واذكر - يا محمد - لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَام، البيت ورفعهما القواعد منه، وهما يقولان ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، فهما في عمل صالح، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما، كما روى ابن أبي حاتم، عن وهب بن الورد: أنه قرأ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ ثم يبكي ويقول: يا خليل الرحمن، ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مُشفق أن لا يقبل منك، وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين الخالص في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءًا تَوْأَمًا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أي: خائفة ألا يتقبل منهم.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبانها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء.

ثم قفى إبراهيم منطقاً فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم.. أين تذهب وتركننا بهذا الوادي ليس به أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال: يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها، ونظرت هل ترى

أحدًا، فلم تر أحدًا، فعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «ذَلِكَ سَعَى النَّاسِ بَيْنَهُمَا». فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا فَقَالَتْ: صَهْ، تُرِيدُ نَفْسَهَا ثُمَّ تَسْمَعْتُ، فَسَمِعْتُ أَيضًا، ثُمَّ قَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتُ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غَوَاثُ، فَإِذَا بِالْمَلِكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ يَبْحَثُ بِعَقِبِهِ - أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ - حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ هَكَذَا، وَتَقُولُ بِيَدِهَا وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهِيَ تَغُورُ بِقَدْرِ مَا تَغْرِفُ.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ، أَوْ قَالَ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ كَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا» قَالَ: فَشَرِبْتُ وَأَرَضَعْتُ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا الْمَلِكُ: لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتُ اللَّهِ يَبْنِيهِ هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَهْلَهُ، وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الْأَرْضِ كَالرَّايَةِ تَأْتِيهِ السُّيُولُ تَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، فَكَانُوا كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمٍ أَوْ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمٍ مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كِدَاءَ، فَزَلُّوا بِأَسْفَلِ مَكَّةَ، فَرَأَوْا طَائِرًا حَائِمًا فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَكْدُورُ عَلَى مَاءٍ، لَعَهْدُنَا بِهِذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ، فَأَرْسَلُوا جُرِيًّا أَوْ جُرَيَيْنِ، فَإِذَا هُمُ بِالْمَاءِ، فَزَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ فَأَقْبَلُوا.

قال: وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ فَقَالُوا: أَتَأْذِنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ، قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الْأَنْسَ»، فَزَلُّوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِهِمْ فَزَلُّوا مَعَهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتِ

مِنْهُمْ، وَشَبَّ الْغُلَامُ وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ أَنْفُسِهِمْ، وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ الْغُلَامُ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوْجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ.

قصة بناء قريش للكعبة

وقد نقل معهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحجارة، وله من العمر خمس وثلاثون سنة صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: ولما بلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خمساً وثلاثين سنة، اجتمعت قريش لبنان الكعبة، وكانوا يَهْمُونَ بذلك ليسقفوها، ويهابون هدمها، وإنما كانت رَضَما فوق القمة، فأرادوا رفعها وتسقيفها، وكان بمكة رجل قبطي نجار، فهيأ لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها، فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها، قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم، فقال: يا معشر قريش، لا تُدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيباً، لا يدخل فيها مهر بغيٍّ ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس، ثم إن قريشاً تَجَرَّأت الكعبة، فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم، وكان ظهر الكعبة لبني جُمَحَ وَسَهْمَ، وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي، ولبني أسد بن عبد العزى بن قُصَي، ولبني ابن كعب بن لؤي، وهو الحَطِيم، حتى إذا انتهى الهدم إلى الأساس، أساس إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة أخذ بعضها بعضاً.

ثم إن القبائل من قريش جَمَعَت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حده، ثم بنوها، حتى بلغ البنيان موضع الركن - يعني الحجر الأسود - فاختصموا

فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا وتخالفوا، وأعدوا للقتال، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دمًا، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت، وادخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسموا: لعقة الدم، فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسًا، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا.

فزعم بعض أهل الرواية: أن أبا أمية المغيرة بن عبد الله بن عُمَر بن مخزوم - وكان عائذ أَسَن قريش كلهم - قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد، يقضي بينكم فيه، ففعلوا، فكان أول داخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلُمَّ إِلَى ثَوْبًا» فأتى به، فأخذ الركن - يعني الحجر الأسود - فوضعه فيه بيده، ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم: ارفعوه جميعًا»، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم بنى عليه، وكانت قريش تسمي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن ينزل عليه الوحي: الأمين، وكانت الكعبة على عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمانية عشر ذراعًا، وكانت تكسى القباطي، ثم كُسِيت بعدُ البرود [تفسير ابن كثير].

معرفة يهود الخبر برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكفرهم به

اليهود لعنهم الله، يعرفونه ويكفرون به.

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن رجال من قومه، قالوا: إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى وهداه لما كنا نسمع من

رجال يهود، وكنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا لنا: إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنّا كثيرًا ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجَبْنَاهُ، حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه، فأمنّا به، وكفروا به، ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩] [كتاب السيرة لابن هشام].

سيرته في قومه قبل البعثة:

كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسن قومه خلقًا، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، حتى كان أفضل قومه مروءةً، وأكرمهم مخالصةً، وخيرهم جوارًا، وأعظمهم حلما، وأصدقهم حديثًا، فسّموه الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة الحميدة، والفعال السديدة من الحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والتواضع، والعفة، والجود، والشجاعة، والحياء، حتى شهد له بذلك ألد أعدائه النضر بن الحارث من بني عبد الدار حيث يقول: قد كان محمد فيكم غلامًا حَدَثًا، أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثًا وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم قلتم: ساحر؟! لا والله، ما هو بساحر، قال ذلك في معرض الاتفاق على ما يقولونه للعرب الذين يحضرون الموسم حتى يكونوا متفقين على قول مقبول يقولونه، ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان قائلًا:

هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال هرقل: ما كان ليدع الكذب على الله، ورد ذلك في أول صحيح البخاري.

وقد حفظه الله في صغره من كل أعمال الجاهلية التي جاء شرعه الشريف بضده^(١).

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يأكل ما ذبح على النصب^(٢) وحرّم شرب الخمر على نفسه مع شيعوه في قومه شيوعاً عظيماً، وذلك كله من الصفات التي يُحَلِّي الله بها أنبياءه ليكونوا على تمام الاستعداد لتلقّي وحيه، فهم معصومون من الأدناس قبل النبوة وبعدها، أما قبل النبوة فليتأهلوا للأمر العظيم الذي سيسند إليهم، وأما بعدها فليكونوا قدوة لأممهم، عليهم من الله أفضل الصلوات وأتم التسليمات.

[كتاب نور اليقين]

بدء الوحي

لما بلغ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سن الكمال وهي أربعون سنة أرسله الله للعالمين بشيراً ونذيراً ليخرجهم من ظلمات الجهالة إلى نور العلم وكان ذلك في أول فبراير سنة ٦١٠ من الميلاد، كما أوضحه المرحوم محمود باشا الفلكي، تبين بعد دقة البحث أنّ ذلك كان في ١٧ رمضان سنة ١٣ قبل الهجرة وذلك يوافق يوليو ٦١٠.

وأول ما بدىء به الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وذلك لما جرت به عادة الله في خلقه من التدرّج في الأمور كلها

(١) الشفاء للقاضي عياض. (م).

(٢) هي حجارة تنصب وتصب عليها دماء الذبائح وتعبد. (م).

حتى تصل إلى درجة الكمال، ومن الصعب جدًا على البشر تلقي الوحي من الملك لأول مرة، ثم حُبَّ إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخلاء، لئبتعد عن ظُلُمات هذا العالم وينقطع عن الخلق إلى الله، فإن في العزلة صفاء السريرة، وكان يخلو بغار حراء^(١) فيتعبّد فيه الليالي ذوات العدد، فتارة عشراً، وتارة أكثر إلى شهر.

وكانت عبادته على دين أبيه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام^(٢) ويأخذ لذلك زاده، فإذا فرغ رجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء.

فبينما هو قائم في بعض الأيام على الجبل إذ ظهر له شخص، وقال: أبشر يا محمد، أنا جبريل، وأنت رسول الله إلى هذه الأمة، ثم قال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمِّيُّ لم يتعلم القراءة قبلاً، فأخذه فغطه بالنمط الذي كان ينام عليه حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله، فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، فأخذه فغطّه ثانية ثم أرسله، فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، فأخذه فغطّه الثالثة، ثم أرسله فقال: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

فرجع بها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرجف فؤاده مما ألم به من الرّوع الذي استلزمته مقابلة الملك لأول مرة، فدخل على خديجة زوجته، فقال: زملوني زملوني، لتزول عنه هذه القشعريرة، فزملوه حتى ذهب عنه الرّوع، فقال لخديجة، وأخبرها الخبر:

(١) جبل على مقربة من مكة.

(٢) قال في السيرة الحلبية (١/٣٨٣): وقد قيل: إن إطعامه من جاء من المساكين كان تعبده في غار حراء أي: مع الانقطاع عن الناس، وقيل: كان تعبده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التفكير مع الانقطاع عن الناس وقيل: تعبده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان الذكر، وصححه في سفر السعادة (م).

لقد خشيت على نفسي - لأن الملك غطّه حتى يكاد يموت، ولم يكن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علم قبل ذلك بجبريل ولا بشكله - فقالت: كلا، والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمّل الكل وتكسب المعدوم^(١) وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق - فلا يسلط الله عليك الشياطين والأوهام^(٢) ولا مرأ أن الله اختارك لهداية قومك.

ولتأكد خديجة مما ظنته أرادت أن تثبت ممن لهم علم بحال الرسل ممن اطلعوا على كتب الأقدمين، فانطلقت به حتى أتت ورقة بن نوفل، ابن عم خديجة، وكان امرؤاً قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب^(٣)، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس^(٤) الذي نزل الله على موسى، لأنه يعرف أن رسول الله إلى أنبيائه هو جبريل، ثم قال: يا ليتني فيها جذعاً (شاباً جلدًا) إذا يخرجك قومك من بلادك التي نشأت بها، بمعاداتهم إياك وكرهيتهم لك حينما تطالبهم بتغيير اعتقادات وجدوا عليها آباءهم^(٥)، فاستغرب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما نسب لقومه مع ما يعلمه من حبههم له لا تصافه بمكارم الأخلاق وصدق القول

(١) تكسب المعدوم: أي تكسب غيرك ما هو معدوم عنده.

(٢) ما بين المعترضين من كلام المؤلف؛ أي من هذا شأنه لا يسلط الله عليه الشياطين.

(٣) ما بين المعترضين لم ينقل من كلام ورقة بن نوفل؛ بل هو تفسير من المؤلف.

(٤) البخاري في بدء الوحي (٣).

(٥) ما بين المعترضين لم ينقل من كلام ورقة بن نوفل؛ بل هو تفسير من المؤلف.

حتى سَمَوْهُ الْأَمِينَ، وقال: «أَوْ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟» قال: لم يأت رجل قط بمثل ما جئت له إلا عودي، وقد نطق بذلك القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣].

ولتمام تصديق ورقة برسالة الرسول الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا (معضدًا)، ثم لم يلبث ورقة أن توفي [المصدر السابق].

فترة الوحي ثم عودته

وكان الوحي قد فتر وانقطع بعد أول نزوله في غار حراء - كما سبق - ودام هذا الانقطاع أيامًا، وقد أعقب ذلك في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شدة الكآبة والحزن، ولكن المصلحة كانت في هذا الانقطاع، فقد ذهب عنه الروع، وثبت من أمره، وتهاى لاحتمال مثل ما سبق حين يعود، وحصل له التشوف والانتظار، وأخذ يرتقب مجيء الوحي مرة أخرى.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد عاد من عند ورقة بن نوفل إلى حراء ليواصل جواره في غاره، ويكمل ما تبقى من شهر رمضان، فلما انتهى شهر رمضان وتم جواره نزل من حراء صبيحة غرة شوال ليعود إلى مكة حسب عادته.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فلما استبطنت الوادي - أى دخلت فى بطنه - نوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئًا، ونظرت إلى شمالي فلم أر شيئًا، فإذا الملك جاءني بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض، فجثت منه رعبًا حتى هويت إلى الأرض فأتيت خديجة، فقلت: زملوني، زملوني، دثروني، وصبوا على ماء باردًا»، فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينَةُ ۖ قُفِّفَانِذِرٌ

﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَثِّرْ ﴿٣﴾ وَنَبَاكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿المدثر: ١-٥﴾، وذلك قبل أن تفرض

الصلاة ثم حمى الوحي وتتابع^(١).

وهذه الآيات هي بدء رسالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي متأخرة عن النبوة بمقدار فترة الوحي، وتشتمل على نوعين من التكليف مع بيان ما يترتب عليه:

أما النوع الأول: فهو تكليفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالبلاغ والتحذير، وذلك في قوله تعالى: ﴿فُؤَادِنِذْرٌ﴾، فإن معناه: حذر الناس من عذاب الله إن لم يرجعوا عما هم فيه من الغي والضلال، وعبادة غير الله المتعال، والإشراك به في الذات والصفات والحقوق والأفعال.

وأما النوع الثاني: فتكليفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتطبيق أوامر الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى والالتزام بها في نفسه، ليحظى بذلك مرضاة الله، ويصير أسوة لمن آمن بالله، وذلك في بقية الآيات، فقوله: ﴿وَرَبِّكَ فَكَثِّرْ﴾، معناه: خصه بالتعظيم، ولا تشرك به في ذلك أحداً غيره، وقوله: ﴿وَنَبَاكَ فَطَهِّرْ﴾، المقصود الظاهر منه تطهير الثياب والجسد، إذ ليس لمن يكبر لله ويقف بين يديه أن يكون نجساً مستقذراً، وقوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾، معناه: ابتعد عن أسباب سخط الله وعذابه، وذلك بطاعته وترك معصيته، وقوله: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾، أى لا تحسن إحساناً تريد أفضل منه في هذه الدنيا.

أما الآية الأخيرة فأشار فيها إلى ما يلحقه من أذى قومه، حين يفارقهم في الدين، ويقوم بدعوتهم إلى الله وحده، فقال: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [كتاب روضة الأنوار].

(١) صحيح: البخاري في التفسير.

بدء الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعوته وأول من أسلم

إن عودة الوحي كانت حامية حارة إذ أمر فيها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإنذار قومه عاقبة ما هم فيه من الشرك، وما هم عليه من الكفر والفساد والشر، كما أمر هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وتوحيده، ثم بتطهير ثيابه من النجاسات؛ لأنه أصبح يتلقى الوحي في كل حين، فتعين أن يكون صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أتم الأحوال وأحسنها، كما أمر بالاستمرار على هجر الأوثان، والبعد عنها، وعدم الالتفات إليها بحال من الأحوال، كل هذا تضمنه قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدِّتُورُ ۝١ قُرْآنٌ ذَرُّوا ۝٢ وَرَبِّكَ فَكَبِّرُ ۝٣ وَيَا بَاكَ فَطَهِّرُ ۝٤ وَالرَّجْزَ فَاهْجُرُ ۝٥ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرُ ۝٧﴾ [المدثر: ١-٧].

ومن هنا بدأ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعوته بعرضه على من يرى فيه الاستعداد لقبولها، فكان أول من أسلم من النساء خديجة بنت خويلد أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأول من أسلم من الصبيان عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذ أسلم وعمره عشر سنين، وصلى مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مختفين بصلاتهما عن أعين قريش.

وأول من أسلم من الرجال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأول من أسلم من الموالى زيد بن حارثة، وكان عبداً لحكيم بن حزام، فوهبه لعمته خديجة بنت خويلد - وهي زوجة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومئذ - فاستوهبه منها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوهبته إياه فأعتقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتبناه، وذلك قبل البعثة النبوية، وكان زيد قد خرجت به أمه - وهو ابن ثمانية أعوام لتزيره بعض أقربائه - فأصلبته خيل من بني القين، فباعوه في سوق حَبَّاشَة من أسواق العرب، فاشتراه حكيم بن حزام في جملة أعبد، ووهبه خديجة [كتاب هذا الحبيب محمد].

من أسلم بدعوة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قال: فأسلم بدعائه فيما بلغني عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف، وسعد بن أبي وقاص، فجاء بهم إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين استجابوا له فأسلموا وصلوا [كتاب السيرة لابن هشام].

تتابع إسلام السابقين

ثم أسلم أبو عبيدة بن الجراح، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وأخواه قدامة وعبد الله ابنا مظعون بن حبيب، وعبيدة بن الحارث بن المطلب، وسعيد بن زيد، وامراته فاطمة بنت الخطاب؛ أخت عمر بن الخطاب، وأسماء بنت أبي بكر؛ وعائشة بنت أبي بكر؛ وهي يومئذ صغيرة، وخباب بن الأرت؛ حليف بني زهرة [المصدر السابق].

الجهربالدعوة بعد الإسراربها

قال ابن إسحاق: ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به، ثم إن الله عَزَّجَلَّ أمر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يصدع بما جاءه منه، وأن يبادي الناس بأمره، وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين فيما بلغني من مبعثه، ثم قال الله تعالى له: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢١٤) ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنْ بَرِئْتُ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿ [الشعراء: ٢١٤-٢١٦].

معنى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، قال ابن هشام: اصدع: الفرق بين الحق والباطل، قال ابن إسحاق: وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا، ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينما سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلحى بعير فشجه، فكان أول دم أهرق في الإسلام [كتاب السيرة لابن هشام]

إيذاء الكفار لرسول الله ﷺ

ورأى رسول الله ﷺ من المشركين كثير الأذى وعظيم الشدة، خصوصاً إذا ذهب إلى الصلاة عند البيت، وكان من أعظمهم أذى لرسول الله ﷺ جماعة سُموا لكثرة أذاهم بالمستهزئين:

وقد روى في صحيح مسلم عن أبي هريرة، قال: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالَ فَقِيلَ: نَعَمْ، فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَّأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ، أَوْ لَأَعْفَرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، قَالَ: فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطَّأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَجَّهْتُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوًّا وَأَجْنَحَةً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ دَنَا مِنِّي لَخَطَفْتُهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا»، وقد روى البخاري في صحيحه مختصراً عن ابن عباس، قال:

قَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَيْنَ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ يُصَلِّي عِنْدَ الْكُعْبَةِ، لَا تَيْنَهُ حَتَّى أَطَأَ عَلَى عُنُقِهِ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «لَوْ فَعَلَهُ لَأَخَذْتُهُ الْمَلَائِكَةُ».

قال الحافظ ابن حجر: وإنما شدد الأمر في حق أبي جهل فلم يقع مثل ذلك لعقبة ابن أبي معيط حيث طرح سلى الجزور على ظهره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يصلي لأنها وإن اشتركا في مطلق الأذية حالة صلاته، لكن زاد أبو جهل في التهديد وبدعوى أهل طاعته وبإرادة وطأ العنق الشريف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي ذلك من المبالغة ما اقتدى تعجيل العقوبة لو فعل ذلك ولأن سلى الجزور لم يتحقق نجاستها وقد عوقب بدعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه وعلى من شاركه في فعله فقتلوا يوم بدر [فتح الباري].

وكان أبو جهل كثيرًا ما ينهى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن صلاته عند البيت فقال له مرة بعد أن رآه يصلي: ألم أنهك عن هذا؟ فأغلظ له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القول وهذّده، فقال: أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي ناديًا؟ فأنزل الله تهديدًا له في آخر سورة العلق: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٩﴾﴾ [العلق: ١٥-١٩].

ومن أذيته للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما حكاه عبد الله بن مسعود من رواية البخاري^(١) قال: كنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المسجد وهو يصلي، فقال أبو جهل: ألا رجل يقوم إلى فرث جزور بني فلان فيلقه عليه وهو ساجد؟ فقام عقبة بن أبي معيط^(٢) بن أبي عمرو أمية بن عبد شمس، وجاء بذلك الفرث، فألقاه

(١) البخاري في الوضوء [٢٤٠].

(٢) أسره المسلمون في بدر، وأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقتله، فقبل جزاء ما اقتربت يده من أذية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقتل معه لنفس السبب النضر بن الحارث ابن هشام: (١/٦٤٤).

على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو ساجد، فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على إلقائه عنه لضعفهم عن مقاومة عدوهم، ولم يزل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساجداً حتى جاءت فاطمة ابنته فأخذت القدر ورمته، فلما قام دعا على مَنْ صنع هذا الصنع القبيح فقال: «اللهم عليك بالملأ من قريش» وسمى أقواماً، قال ابن مسعود: فرأيتهم قُتلوا يوم بدر.

ومما حصل لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أبي جهل أن هذا اتباع أجماً من رجل يقال له: الأراشي فمطله بأثمانها فجاء الرجل مجمع قريش يريد منهم مساعدة على أخذ ماله، فدّلّوه على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لينصفه من أبي جهل استهزاء لما يعلمونه من أفعال ذلك الشقي بالرسول، فتوجه الرجل إليه وطلب منه المساعدة على أبي جهل فخرج معه حتى ضرب عليه بابه فقال: من هذا؟ قال: «محمد»، فخرج منتقماً لونه فقال له الرسول: «أعطِ هذا حقه»، فقال أبو جهل: لا تبرح حتى تأخذه، فلم يبرح الرجل حتى أخذ دينه، فقالت قريش: ويلك يا أبا الحكم، ما رأينا مثل ما صنعت! قال: ويحكم! والله ما هو إلا أن ضرب على بابي حتى سمعت صوته فملت منه رعباً، ثم خرجت إليه وإن فوق رأسي فحلاً من الابل ما رأيت مثله قط، لو أبيت أو تأخرت لأكلني.

ومن جماعة المستهزئين: أبو لهب بن عبد المطلب، عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أشد عليه من الأعداء، فكان يرمى القدر على بابه لأنه كان جاراً له، فكان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطرحه ويقول: يا بني عبد مناف، أي جوار هذا؟!

وكانت تشاركه في قبيح عمله زوجته أم جميل بنت حرب بن أمية، فكانت كثيرًا ما تسب رسول الله ﷺ وتتكلم فيه بالنمائم، وخصوصًا بعد أن نزل فيها وفي زوجها سورة المسد.

ومن المستهزئين: عتبة بن أبي معيط كان الجار الثاني لرسول الله، وكان يعمل معه كأبي لهب، صنع مرة وليمة ودعا لها كبراء قريش وفيهم رسول الله فقال ﷺ: «والله لا أكل طعامك حتى تؤمن بالله»، فتشهد فبلغ ذلك أبي بن خلف الجمحي القرشي، وكان صديقًا له فقال: ما شيء بلغني عنك؟ قال: لا شيء، دخل منزلي رجل شريف فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يأكل طعامًا فشهدت له: قال أبي: وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمدًا فلم تطأ عنقه، وتبزق في وجهه، وتلطم عينه، فلما رأى عتبة رسول الله فعل ذلك فأنزل الله فيه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (٢٧) يُولَيْتَنِي لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

ومن أشد ما صنعه ذلك الشقي برسول الله ﷺ ما رواه البخاري في صحيحه ^(١) قال: بينما النبي يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عتبة بن أبي مُعَيْط فوضع ثوبه في عنق رسول الله فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ وقال: ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨].

(١) البخاري في التفسير (٨ / ٤٨١٥).

ومن جماعة المستهزئين: العاص بن وائل السهمي القرشي والد عمرو بن العاص، كان شديد العداوة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان يقول: غرَّ محمدٌ نفسه وأصحابه أن يحيوا بعد الموت، والله ما يهلكنا إلا الدهر، فقال الله ردًّا عليه في دعواه: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجن: ٢٤]، وكان عليه دين لخباب بن الأرت، أحد رجال المسلمين، فتقاضاه إياه، فقال العاص: أليس يزعم محمد هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما يتبغي أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم؟ قال خباب: بلى! قال فأنظرنى إلى هذا اليوم، فسأوتى مالا وولدا وأقضيكَ دينك، فأنزل الله: ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَوْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (٧٨) ﴿كَأَلَّا سَكَتُكُمْ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ (٧٩) وَنَرِثُهُ، مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فَردًا﴾ [مريم: ٧٨-٨٠]، ومن جماعة المستهزئين: الأسود بن عبد يغوث، الزهري، القرشي، من بني زهرة، أخوال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان إذا رأى أصحاب النبي مقبلين يقول: قد جاءكم ملوك الأرض، استهزاءً بهم لأنهم كانوا متقشفين، ثيابهم رثة، وعيشهم خشن، وكان يقول لرسول الله سخرية: أما كُلمت اليوم من السماء؟.

ومنهم: الأسود بن عبد المطلب الأسدي، ابن عم خديجة، كان هو وشيعته إذا مر عليهم المسلمون يتغامزون، وفيهم نزل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (٩١) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٢]، ومنهم: الوليد بن المغيرة، عم أبي

جهل، كان من عظماء قريش وفي سعة من العيش، سمع القرآن مرة من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال لقومه بني مخزوم: والله لقد سمعت من محمد أنفًا كلامًا ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يُعلى، فقالت قريش: صبا والله الوليد، لتصبأَنَّ قريش كلها، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فتوجه وقعد إليه حزينًا وكلمه بما أحماه^(١)، فقال: فأتاهم فقال: ترعمون أن محمدًا مجنون فهل رأيتموه يهُوس^(٢)؟ وتقولون: إنه كاهن، فهل رأيتموه يتكهن؟ وترعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه يتعاطى شعرًا قط؟ وترعمون أنه كذاب، فهل جربتم عليه شيئًا من الكذب؟ فقالوا في كل ذلك: اللهم لا، ثم قالوا: فما هو؟ ففكر قليلاً ثم قال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ فارتجَّ النادى فرحًا، فأنزل الله في شأن الوليد في سورة المدثر مخاطبًا لرسوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۚ وَبَنِينَ شُهُودًا ۚ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۚ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِيْتِنَانًا عِندَنَا ۚ سَأَرْهُقُهُ صُعُودًا ۚ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۚ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۚ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۚ ثُمَّ نَظَرَ ۚ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۚ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۚ فَقالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۚ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ١١-٢٦].

وأنزل فيه أيضًا في سورة القلم: ﴿وَلَا تُطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ [العلق: ١٠]، كثير الحلف وكفى بهذا زاجرًا لمن اعتاد الحلف ﴿مَهِينٍ﴾ حقير، وأراد به الكذاب لأنه حقير

(١) أحماه: المقصود بها هنا: أثار غضبه.

(٢) يهوس: يحدّث نفسه، والهوس: طرف من الجنون.

في نفسه ﴿هَمَازٍ﴾ عياب طعان ﴿مَشَاءَ نَبِيمٍ﴾ بنقل الأحاديث للإفساد بين الناس ﴿مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ (١٣) عَثَلٍ ﴿غَلِيظَ جَافٍ﴾ ﴿بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ دخيل ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ (١٤) إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ءَايُنَا قَالَكُ اسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ﴿كناية عن الإذلال والتحقير؛ لأن الوجه أكرم عضو والأنف أشرف ما فيه، ولذلك اشتقوا منه كل ما يدل على العظمة، كأنفة وهي: الحمية، فالوسم على أشرف عضو دليل الإذلال والإهانة.

ومن المستهزئين: النضر بن الحارث، كان إذا جلس رسول الله مجلساً للناس يحدثهم ويذكرهم ما أصاب من قبلهم، قال النضر: هلموا يا معشر قريش، فإني أحسن منه حديثاً، ثم يحدث عن ملوك فارس، وكان يعلم أحاديثهم، ويقول: ما أحاديث محمد إلا أساطير الأولين، وفيه نزل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّشَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿[لقمان: ٦-٧].

وكل هؤلاء انتقم الله منهم، كما قال تعالى في التنزيل: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿[الحجر: ٩٥-٩٦]، وقد وضع الله جلَّ وعَلَا الوعد في صورة الماضي للتحقق من وقوعه، لأن الآية مكية، وهلاك هذه الفئة كان بعد الهجرة؛ فمنهم من قتل كأبي جهل والنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط، ومنهم من ابتلاه الله بأمراض شديدة فهلك منها؛ كأبي لهب والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة (١) [كتاب نور اليقين].

(١) ومنهم من عمى، كالأسود بن المطلب، انظر: سيرة ابن هشام (١/٤٠٨) وما بعدها.

قصة استماع قريش إلى قراءة النبي ﷺ

عن الزهري أنه حدث: أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي؛ حليف بني زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، إذا طلع الفجرُ تفرقوا فجمعهم الطريقُ، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى طلع الفجرُ تفرقوا، فجمعهم الطريقُ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى نتعاهد ألا نعود على ذلك، ثم تفرقوا.

الأخنس يستفهم عما سمعه: فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يُراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به كذلك [السيرة النبوية لابن هشام].

تعذيب الكفار للمسلمين

فأما تعذيبهم المسلمين فقد أتوا فيه بأنواع تقشعر لها الجلود، وتتفطر منها القلوب.

كان بلال بن رباح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مملوكًا لأمية بن خلف الجمحي، فكان أمية يجعل في عنقه حبلاً، ويدفعه إلى الصبيان، يلعبون به، وهو يقول: أحدٌ أحدٌ، وكان يخرج به في وقت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في الرمضاء، وهي الرمل أو الحجر الشديد الحرارة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا يزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فيقول: أحدٌ، أحدٌ.

ومر به أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوماً وهو يعذب فاشتراه وأعتقه لله.

وكان عامر بن فهيرة يعذب حتى يفقد وعيه، ولا يدري ما يقول.

وعذب أبو فكيهة - واسمه أفلح، قيل: كان من الأزد، وكان مولى لبني عبد الدار، فكانوا يخرجونه في نصف النهار في حر شديد، وفي رجليه قيد من حديد، فيجردونه من الثياب، ويبطحونه في الرمضاء، ثم يضعون على ظهره صخرة حتى لا يتحرك، فكان يبقى كذلك حتى لا يعقل، فلم يزل يعذب كذلك حتى هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، وكانوا مرة قد ربطوا رجليه بحبل، ثم جروه، وألقوه في الرمضاء، وخنقوه حتى ظنوا أنه مات، فمر به أبو بكر فاشتراه وأعتقه لله.

وكان خباب بن الأرت ممن سبي في الجاهلية، فاشتريته أم أنمار بنت سباع الخزاعية، وكان حداًداً، فلما أسلم عذبتة مولاته بالنار، كانت تأتي بالحديدة المحماة فتجعلها على ظهره ليكفر بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يكن يزيده ذلك إلا إيماناً وتسليماً، وكان المشركون أيضاً يعذبونه، فيلوون عنقه، ويجذبون شعره،

وقد ألقوه مرارًا على فحم النار، ثم وضعوا على صدره حجرًا ثقیلاً حتى لا يقوم. وكانت زبيبة أمة رومية، أسلمت، فعذبت في الله، وأصيبت في بصرها حتى عميت، فقيل لها: أصابتك اللات والعزى، فقالت: لا والله ما أصابتني، وهذا من الله، وإن شاء كشفه، فأصبحت من الغد، وقد رد الله بصرها، فقالت قريش: هذا بعض سحر محمد.

وأسلمت أم عبيس: جارية لبني زهرة، فكان يعذبها مولايها الأسود بن عبد يغوث، وكان من أشد أعداء رسول الله ﷺ ومن المستهزئين به.

وأسلمت جارية عمرو بن مؤمل من بني عدي، فكان عمرو بن الخطاب يعذبها، وهو يومئذ على الشرك، فكان يضربها حتى يفتر، ثم يدعها، ويقول: والله ما أدعك إلا سامة، فتقول: كذلك يفعل بك ربك.

وتذكر فيمن أسلمن وعذبن من الجواري: النهديّة، وابنتها وكانت لا امرأة من بني عبد الدار، واشترى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هؤلاء الجواري، وأعتقهن كما أعتق بلالاً وعامر بن فهيرة، وأبا فكهية، وقد عاتبه أبوه أبو قحافة، وقال: أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أعتقت رجالاً جلدًا لمنعوك، فقال: إني أريد وجه الله، فأنزل الله قرآنا مدحه فيه وذم أعداءه، فقال: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى [الليل: ١٤-١٦]، وهو أمية بن خلف، ومن كان على شاكلته ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠)

وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿ [الليل: ١٧-٢١]، وهو أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعمن أعتقهم، وعن الصحابة أجمعين.

وعذب عمار بن ياسر وأمه وأبوه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وكانوا حلفاء بني مخزوم، فكان بنو مخزوم -وعلى رأسهم أبو جهل- يخرجونهم إلى الأبطح، إذا حميت الرمضاء، فيعذبونهم بحرهما، ويمر بهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقول: «صَبْرًا يَا آلَ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةَ» أما ياسر والد عمار - وهو ياسر بن عامر بن مالك العنسي - فقد مات تحت العذاب، وأما أم عمار - وهى سمية بنت خياط مولاة أبي حذيفة المخزومي، وكانت عجوزًا كبيرة ضعيفة، فطعنها أبو جهل في قُبْلِهَا بحرבתه، فماتت، وهى أول شهيدة في الإسلام.

وأما عمار فثقل عليه العذاب، فإن المشركين تارة كانوا يلبسونه درعًا من حديد في يوم صائف، وتارة كانوا يضعون على صدره صخرًا أحمر ثقيلًا، وتارة كانوا يغطونه في الماء، حتى قال بلسانه بعض ما يوافقهم، وقلبه مليء بالإيمان، فأنزل الله: ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل: ١٠٦].

وعذب في الله مصعب بن عمير، كان من أنعم الناس عيشًا، فلما دخل في الإسلام منعه أمه الطعام والشراب، وأخرجته من البيت، فتخشف جلده تخشف الحية.

وعذب صهيب بن سنان الرومي، حتى فقد وعيه، ولا يدري ما يقول.

وعذب عثمان بن عفان، كان عمه يلفه في حصير من ورق النخيل، ثم يدخنه من تحته.

وأوذى أبو بكر الصديق، وطلحة بن عبيد الله، أخذهما نوفل بن خويلد العدوي وقيل: عثمان بن عبيد الله، أخو طلحة بن عبيد الله، فشدهما في حبل واحد، ليمنعهما عن الصلاة وعن الدين، فلم يجيباه، فلم يروعا إلا وهما مطلقان يصليان، وسميا بالقرنين لكونهما قد شُدا في حبل واحد.

وكان أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم وله شرف ومنعة، أنبه، وأخزاه، وأوعده بإلحاق الخسارة الفادحة في المال والجاه، وإذا كان الرجل ضعيفاً ضربه وأغرى به، والحاصل أنهم لم يعلموا بأحد دخل في الإسلام إلا وتصدوا له بالأذى والنكال.

كانت هذه الاعتداءات ضد ضعفاء المسلمين وعامتهم، أما من أسلم من الكبار والأشراف فإنهم كانوا يحسبون له حساباً، ولم يكن يجترأ عليهم إلا أمثالهم من رؤساء القبائل وأشرافها، وذلك مع قدر كبير من الحيطة والحذر [روضة الأنوار].

عتبة بن ربيعة يفاوض الرسول ﷺ

عن محمد بن كعب القرظي، قال: حَدَّثْتُ أَنَّ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَكَانَ سَيِّدًا، قَالَ يَوْمًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادِي قَرِيشَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحْدَهُ: يَا مَعْشَرَ قَرِيشَ، أَلَا أَقُومُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَأَكْلِمُهُ وَأَعْرِضُ عَلَيْهِ أُمُورًا لَعَلَّهُ يَقْبَلُ بَعْضُهَا فَنَعْطِيهِ أَيُّهَا شَاءَ، وَيَكْفِ عَنَّا؟ وَذَلِكَ حِينَ أَسْلَمَ حَمْزَةُ، وَرَأَوْا أَصْحَابَ

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يزيدون ويكثرون؛ فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلّمه؛ فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السّطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم وسفّهت به أحلامهم وعبت به ألّهمهم ودينهم وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

قال: فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُلْ يا أبا الوليد، أسمع»، قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا؛ وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُدأوى منه أو كما قال له، حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستمع منه، قال: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم، قال: «فاسمع مني»؛ قال: أفعل.

فقال: ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (٢) كَتَبْتُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيْءِ ءَاذَانِنَا وَقَدْ وَفَّرْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿﴾ [فصلت: ١-٥]، ثم مضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها يقرؤها عليه فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى

يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه؛ ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: «قد سمعت الوليد ما سمعت، فأنت وذاك».

ما أشار به عتبة على أصحابه: فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعتُ قولاً والله ما سمعت مثله قطُّ، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكون لقوله الذي سمعتُ منه نبأ عظيم، فإن تصبّه العرب فقد كُفّتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزّه عزكم، وكنتم أسعدَ الناس به؛ قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

[كتاب السيرة ابن هشام]

أول من جهر بالقرآن عبد الله بن مسعود وما ناله من قريش في سبيل جهره بالقرآن

عن عروة بن الزبير، قال: كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: اجتمع يوماً أصحابُ رسول الله ﷺ، فقالوا: والله ما سمعتُ قريش هذا القرآن يجهر لها به قطُّ، فمن رجل يُسمِعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا، قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دعوني فإن الله سيمنعني، قال: فغدا ابن مسعود

حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّمَنِ الرَّحِيمِ﴾ رافعاً بها صوته ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝﴾ [الرحمن: ١-٢]، قال: ثم استقبلهم يقرؤها، قال: فتأملوه فجعلوها يقولون: ماذا قال ابنُ أمِّ عبد؟ قال: ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه فجعلوها يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشنا عليك؛ فقال: ما كان أعداء الله أهونَ عليَّ منهم الآن، ولئن شئتُم لأغادينهم بمثلها غداً؛ قالوا: لا، حَسْبُكَ، قد أسمعتهُم ما يكرهون [المصدر السابق].

دخول أبي بكر في جوار ابن الدغنة ثم رده عليه

سبب جوار ابن الدغنة لأبي بكر:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: حين ضاقت عليه مكة وأصابه فيها الأذى، ورأى من تظاهر قريش على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ما رأى، استأذن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الهجرة فأذن له، فخرج أبو بكر مهاجراً، حتى إذا سار من مكة يوماً أو يومين، لقيه ابن الدغنة، أخو بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وهو يومئذ سيد الأحابيش.

فقال ابن الدغنة: أين يا أبا بكر؟ قال: أخرجني قومي وآذوني، وضيقوا عليَّ، قال: ولم؟ فوالله إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب، وتفعل المعروف، وتكسبُ المعدوم، ارجع فأنت في جواري، فرجع معه، حتى إذا دخل مكة، قام

ابن الدُّغْنَة فقال: يا معشر قريش؛ إني قد أجرت ابن أبي قحافة، فلا يعرضنَّ له أحد إلا بخير، قالت: فكفوا عنه.

سبب خروج أبي بكر من جوار ابن الدُّغْنَة

قالت: وكان لأبي بكر مسجد عند باب داره في بني جُمَح، فكان يصلي فيه، وكان رجلاً رقيقاً إذا قرأ القرآن استبكى، قالت: فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء، يعجبون لما يروُن من هيئته، قالت: فمشى رجال من قريش إلى ابن الدُّغْنَة، فقالوا: يا ابن الدُّغْنَة، إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا! إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكي؛ وكانت له هيئة ونحو؛ فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم؛ فأمره أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء، قالت: فمشى ابن الدُّغْنَة إليه؛ فقال له: يا أبا بكر؛ إني لم أجرك لتؤذي قومك؛ إنهم قد كرهوا مكانك الذي أنت فيه وتأذوا بذلك منك، فادخل بيتك، فاصنع فيه ما أحببت، قال: أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله؟ قال: فاردد عليَّ جواري؛ قال: قد رددته عليك، قالت: فقام ابن الدُّغْنَة، فقال: يا معشر قريش، إن ابن أبي قحافة قد ردَّ عليَّ جواري، فشأنكم بصاحبكم.

وعن القاسم بن محمد، قال: فلقيه سفيه من سفهاء قريش، وهو عامد إلى الكعبة، فحثا على رأسه تراباً، قال: فمرَّ بأبي بكر الوليد بن المغيرة، أو العاص بن وائل، قال: فقال أبو بكر: ألا ترى إلى ما يصنع هذا السفيه؟ قال: فعلت ذلك بنفسك، قال: وهو يقول: أي رب، ما أحلمك! أي رب، ما أحلمك! أي رب، ما أحلمك! [المصدر السابق].

سجود المشركين بغير إرادتهم

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: أن أول سورة أعلنها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة سورة النجم.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سجد بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس، وعن عبد الله أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ سورة النجم فسجد لها، فما بقي أحد من القوم إلا سجد، فأخذ رجل من القوم كفًا من حصي أو تراب فرفعه إلى وجهه وقال: يكفيني هذا، قال عبد الله: فلقد رأيته بعد قتل كافرًا [رواه البخاري - تفسير القرطبي].

الهجرة الأولى إلى الحبشة

قال ابن إسحاق: فلما رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، لمكانه من الله ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه»^(١)، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت في الإسلام.

وكان أول من خرج من المسلمين من بني أمية: عثمان بن عفان، معه امرأته رقية بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) هكذا بدون إسناد أورده ابن كثير في البداية (٦٦/٣).

ومن بني عبد شمس بن عبد مناف: أبو حذيفة بن عتبة معه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو، أحد بني عامر بن لؤي، ولدت له بأرض الحبشة محمد بن حذيفة، ومن بني أسد: الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد، ومن بني عبد الدار بن قصي مصعب بن عمير، ومن بني زهرة بن كلاب: عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف، ومن بني مخزوم بن يقظة بن مرة: أبو سلمة، معه امرأته أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله عمر بن مخزوم.

ومن بني جمح بن عمرو هصيص بن كعب: عثمان بن مظعون، ومن بني عدي بن كعب: عامر بن ربيعة، حليف آل الخطاب، من عنز بن وائل.

قال ابن هشام: ويقال: من عنزة بن أسد بن ربيعة معه امرأته ليلى بنت أبي حثمة بن حذافة.

ومن بني عامر بن لؤي: أبو سبرة بن أبي رهم بن عبد العزيز، ويقال: بل أبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس، ويقال: هو أول من قدمها، ومن بني الحارث بن فهر: سهيل بن بيضاء، وهو سهيل بن وهب بن ربيعة بن هلال، فكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة، فيما بلغني.

قال ابن هشام: وكان عليهم عثمان بن مظعون، فيما ذكر لي بعض أهل العلم.

قال ابن اسحاق: ثم خرج جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة، فكانوا بها، منهم من خرج بأهله معه، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل له معه.

ومن بني هاشم بن عبد مناف: جعفر بن أبي طالب، معه امرأته أسماء بنت عُميس بن النعمان بن كعب بن مالك بن قحافة بن خثعم، ولدت له بأرض الحبشة عبد الله بن جعفر [السيرة لابن هشام].

قريش تطلب المهاجرين إلى الحبشة

قال ابن اسحاق: فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة وأنهم قد أصابوا دارًا وقرارًا، ائتمروا بينهم أن يبعثوا منهم رجلين من قريش جلدتين إلى النجاشي، فيردهم عليهم، ليفتنوهم في دينهم، ويخرجوهم من دارهم التي اطمأنوا بها وأمنوا فيها؛ فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص بن وائل، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقتة، ثم بعثوهما إليه فيهم.

قال ابن اسحاق: حدثني محمد بن مسلم الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالت: لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نُؤذِي ولا نسمع شيئًا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدتين، وأن يهديا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم، فجمعوا له أدمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقتة بطريقًا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم، ثم قدما إلى

النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم^(١).

قالت: فخرجنا حتى قدما إلى النجاشي، ونحن عنده بخير دار، عند خير جار، فلم يبق من بطارقه بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلمنا النجاشي، وقالوا لكل بطريق منهم: إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم؛ فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم؛ فقالوا لهما: نعم.

ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي، قالت: فقالت بطارقه حوله: صدقا أيها الملك قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فليردهم إلى بلادهم وقومهم.

(١) سبحانه الله! إحساس قوي عندهم راسخ في قلوبهم الضعف حجتهم واتهام رأيهم وفساده. فإنهم يخشون كلامهم مع النجاشي، ومن هنا ندرك قيمة الكلمة التي تُصلحُ أقوامًا. والكلمة التي تدمر.

قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنُ جوارهم ما جاوروني.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول: والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائنًا في ذلك ما هو كائن.

فلما جاءوا وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني، وفي دين أحد من هذه الملل؟ قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال له: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.



قالت: فعدد عليه أمور الإسلام، فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما قال، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: قال له جعفر: نعم؛ فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ، قالت: فقرأ عليه صدرًا من ﴿كَهَيْعَصَ﴾ [مريم: ١]، قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى خَضَلُوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يُكادون.

قالت: فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل بها خضراءهم، قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجلين فينا: لا تفعل، فإن لهم أرحامًا، وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد، قالت: ثم غدا عليه من الغد فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلمهم عما يقولون فيه.

قالت: فأرسل إليهم ليسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثلهم قط، فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاء به نبينا، كائنًا في ذلك ما هو كائن، قالت: فلما دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟ قالت: فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

قالت: فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عودًا، ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، قالت: فتناخرت بطارقه حوله حين قال ما قال؛ فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شُيُوم بأرضي، والشُيُوم: الآمنون، من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ما أحب أن لي دبرًا من ذهب، وأنى آذيت رجلًا منكم [المصدر السابق].

إسلام حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

أما إسلام حمزة فسببه أن أبا جهل مريومًا برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو عند الصفا، فنال منه وآذاه، ويقال: إنه ضربه بحجر في رأسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فشججه، ونزف منه الدم، ثم انصرف إلى نادي قريش عند الكعبة، وجلس معهم، وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان تنظر ما حدث من مسكن لها على الصفا، وبعد قليل أقبل حمزة من الصيد متوشحًا قوسه، فأخبرته الخبر، فخرج حمزة يسعى حتى قام على أبي جهل، وقال: يا مصفر استه! تشتم ابن أخي، وأنا على دينه، ثم ضربه بالقوس، فشججه شجة منكرة، وثار الحيان: بنو مخزوم وبنو هاشم، فقال أبو

جهل: دعوا أبا عماره؛ أي حمزة فإني سببت ابن أخيه سبا قبيحاً^(١).

وكان إسلام حمزة أنفة، كأن اللسان قد سبق إليه دون قصد، ثم شرح الله صدره للإسلام، وكان أعز فتى في قريش، وأقواهم شكيمة، حتى سمي أسد الله، أسلم في ذي الحجة سنة ست من النبوة [روضة الأنوار].

إسلام عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢)

بعد ثلاثة أيام من إسلام حمزة أسلم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان من أشد الناس قسوة على المسلمين قبل إسلامه، وفي ليلة سمع سراً بعض آيات القرآن، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي عند الكعبة، فوقع في قلبه أنه حق، ولكنه بقي على عناده، حتى خرج يوماً متوشحاً سيفه يريد أن يقتل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلقبه رجل، فقال: أين تعمد يا عمر؟ قال: أريد أن أقتل محمداً، قال: كيف تأمن من بني هاشم ومن بني زهرة، وقد قتلت محمداً؟ قال عمر: ما أراك إلا قد صبوت؟ قال: أفلا أدلك على العجب يا عمر؟ إن أختك وختنك قد صبوا، فمشى مغضباً حتى أتاهما، وعندهما خباب بن الأرت يقرئهما صحيفة فيها طه، فلما سمع حس عمر توارى في البيت، وستر أخت عمر الصحيفة، فلما دخل، قال: ما هذه الهنيمة التي سمعتها عندكم، فقالا: ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا، قال: لعلكما قد صبوتما؟ فقال له ختنه: يا عمر! أرأيت إن كان الحق في غير دينك؟ فوثب عمر على ختنه، فوطئه وطأ شديداً، فجاءت أخته فرفعته عن زوجها، فنفحها نفحة بيده فدمى وجهها، فقالت وهي غضبي: يا عمر إن كان الحق في غير دينك، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٩، ٢٩٢)، وقد ضعف القصة بعض أهل العلم.

(٢) وقد ضعف القصة بعض أهل العلم.

ويئس عمر وندم واستحيى، وقال: اعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرؤه فقالت أخته: إنك رجس، ولا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل، فقام فاغتسل، ثم أخذ الكتاب فقرأه: بسم الله الرحمن الرحيم فقال: أسماء طيبة طاهرة، ثم قرأ طه حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، فقال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! دلوني على محمد.

وخرج خباب فقال: أبشر يا عمر! فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لك ليلة الخميس وكان قد دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلك الليلة: «اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك، بعمر بن الخطاب أو أبي جهل بن هشام» ثم ذكر له خباب أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دار الأرقم التي في أصل الصفا.

فخرج عمر حتى أتى الدار وضرب الباب، فأطل رجل من صرير الباب فراه متوشحاً بالسيف، فأخبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستجمع القوم، فقال حمزة: ما لكم؟ قالوا: عمر. فقال: وعمر، افتحوا له الباب، فإن كان يريد الخير بذلناه له، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ داخل يوحى إليه، ثم خرج فأخذ بمجامع ثوب عمر وحمائل سيفه وهو في الحجرة فجذبه بشدة، وقال: أما تنتهي يا عمر حتى ينزل الله بك من الحزري والنكال ما نزل بالوليد بن المغيرة؟ ثم قال: اللهم هذا عمر بن الخطاب، اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب، فقال عمر: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد [المصدر السابق].

صحيفة قريش الأثمة

قال ابن إسحاق: فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلدًا أصابوا به أمنًا وقرارًا، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل الاسلام يفسو في القبائل، اجتمعوا واثتمروا بينهم أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على بني هاشم، وبني المطلب، على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئًا، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدًا على أنفسهم، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف الدار بن قصي.

وقد كان أبو جهل بن هشام - فيما يذكرون - لقي حكيم بن حزام، معه غلام يحمل قمحًا يريد به عمته خديجة بنت خويلد، وهى عند رسول الله ﷺ، ومعه في الشعب فتعلق به وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة، فجاءه أبو البختري بن هشام، فقال: ما لك وله؟ فقال: يحمل الطعام إلى بني هاشم، فقال له أبو البختري: طعام كان لعمته عنده، بعثت إليه فيه، أفتمنعه أن يأيتها بطعامها؟! خلّ سبيل الرجل، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه، فأخذ له أبو البختري لحي بغيره، فضربه به فشجه، ووطئه وطأً شديدًا، وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فيشمتوا

بهم، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك يدعو قومه ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، منادياً بأمر الله لا يتقي فيه أحداً من الناس [السيرة لابن هشام].

الذين عادوا من الحبشة عندما بلغهم إسلام أهل مكة

قال ابن إسحاق: وبلغ أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذين خرجوا إلى أرض الحبشة، إسلام أهل مكة، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك، حتى إذا دنوا من مكة، بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوار أو مستخفياً، ومنهم من رجع إلى الحبشة [المصدر السابق].

عثمان بن مظعون يرد جوار الوليد

قال ابن إسحاق: فأما عثمان بن مظعون فإن صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف حدثني عن حدثه عن عثمان، قال: لما رأى عثمان بن مظعون ما فيه أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من البلاء، وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد بن المغيرة، قال: والله إن غدوي ورواحي آمنا بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني، لنقص كبير في نفسي، فمشى إلى الوليد بن المغيرة، فقال له: يا أبا عبد شمس، وفدت ذمتك، قد رددت إليك جوارك؛ فقال له: لم يا ابن أخي؟ لعله آذاك أحد من قومي، قال: لا، ولكنني أَرْضَى بجوار الله، ولا أريد أن أستجير بغيره، قال: فانطلق إلى المسجد، فاردد عليَّ جوارِي علانية كما أجزتك علانية.

قال: فانطلقا فخرجا حتى أتيا المسجد، فقال الوليد، هذا عثمان قد جاء يرد عليَّ جوارِي؛ قال: صدق، قد وجدته وفيًّا كريم الجوار، ولكنني قد أحببت أن لا

أستجير بغير الله، فقد رددت عليه جواره، ثم انصرف عثمان، وليد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب في مجلس من قريش ينشد لهم، فجلس معهم عثمان، فقال لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل^(١).

قال عثمان: صدقت. قال لبيد^(٢): وكل نعيم لا محالة زائل.

قال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول، قال لبيد بن ربيعة: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجدن في نفسك من قوله؛ فرد عليه عثمان حتى شرى أمرهما، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فخضرها^(٣)، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان، فقال: أما والله يا ابن أخي إن كانت عينك عما أصابها لغنية، لقد كنت في ذمة منيعة، قال: يقول عثمان: بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإنني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس؛ فقال له الوليد: هلم يا ابن أخي، إن شئت فعد إلى جوارك؛ فقال: لا^(٤) [المصدر السابق].

نقض صحيفة قريش الظالمة

قال ابن اسحاق: وبنو هاشم وبنو المطلب في منزلهم الذي تعاقدت فيه قريش عليهم في الصحيفة التي كتبوها، ثم إنه قام في نقض تلك الصحيفة التي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [٦٤٨٩]. والترمذي في سنته [٢٨٤٩].

(٢) انظر كتاب الشعر والشعراء [٦٩] ترجمة له.

(٣) فَخَضَرَهَا: أى فصار لونها أخضر من الورم والضربة.

(٤) إسناد ضعيف: وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/١٠٣) وفيه رجل لم يُسم.

تكاثبت فيها قريش على بني هاشم وبني المطلب نفر من قريش، ولم يبل فيها أحد أحسن من بلاء هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث، وذلك أنه كان ابن أخي نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه، فكان هشام لبني هاشم واصلاً، وكان ذا شرف في قومه، فكان - فيما بلغني - يأتي بالبعير وبني هاشم وبني المطلب في الشعب ليلاً قد أوقره طعاماً حتى إذا أقيّل به فم الشعب خلع خطامه من رأسه، ثم ضرب على جنبه، فيدخل الشعب عليهم ثم يأتي به قد أوقره بُزاً أو بُراً فيفعل به مثل ذلك.

قال ابن إسحاق: ثم إنه مشى إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت، لا يباعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح منهم؟ أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبداً؛ قال: ويحك يا هشام، فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمّت في نقضها حتى أنقضها، قال: قد وجدت رجلاً، قال: فمن هو؟ قال: أنا، قال له زهير: أبغنا رجلاً ثالثاً.

فذهب إلى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف فقال له: يا مطعم، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيه؟ أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً، قال: ويحك، فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت ثانياً، قال: من هو؟ قال: أنا،

فقال: أبغنا ثالثاً، قال: قد فعلت، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، قال: أبغنا رابعاً.

فذهب إلى البختری بن هشام، فقال له نحواً مما قال للمطعم بن عدي، فقال: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا معك، قال: أبغنا خامساً.

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه، وذكر له قرابتهم وحققهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سمى له القوم.

فاتعدوا خطم الحجون ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا هنالك، فأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدوكم، فأكون أول من يتكلم، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلة، فطاف بالبيت سبعة؛ ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة، أناكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يُباع ولا يُبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

قال أبو جهل - وكان في ناحية المسجد -: كذبت، والله لا تشق، قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حيث كتبت، قال أبو البختری: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها، ولا نقر به، قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها، ومما كتب فيها، قال هشام بن عمرو نحواً من ذلك، فقال أبو جهل: هذا أمر قُضيَ بليل، تُشور فيه بغير هذا المكان،

قال: وأبو طالب جالس في ناحية المسجد، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها، إلا باسمك اللهم.

وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة، فشلت يده فيما يزعمون.

قال ابن هشام: وذكر بعض أهل العلم: أن رسول الله ﷺ قال لأبي طالب: «ياعم، إن ربي الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسمًا هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان». فقال: أربك أخبرك بهذا؟ قال: نعم؛ فو الله ما يدخل عليك أحد ثم خرج إلى قريش، فقال: يا معشر قريش، إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهلم صحيفتكم، فإذا كان كما قال ابن أخي فانتوها عن قطيعتنا، وانزلوا عما فيها، وإن يكن كاذبًا دفعت إليكم ابن أخي، فقال القوم: رضينا، فتعاقدوا على ذلك، ثم نظروا، فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ، فزادهم ذلك شرًا، فعند ذلك صنع الرهط من قريش في نقض الصحيفة ما صنعوا^(١) [المصدر السابق].

الطفيل بن عمرو الدوسي يسلّم ويدعو قومه

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ، على ما يرى من قومه، يبذل لهم النصيحة، ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه، وجعلت قريش، حين منعه الله منهم، يحذرونه الناس ومن قدم عليهم من العرب.

وكان الطفيل بن عمرو الدوسي يحدث: أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها، فمشى إليه رجال من قريش، وكان الطفيل رجلًا شريفًا شاعرًا لبيًا، فقالوا له:

(١) صحيح: أصله عند البخاري في صحيحه [١٥٩٠] [٣٨٨٢].

يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين المرء وأبيه، وبين الرجل وأخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئاً.

قال: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفاً فرقا من أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه.

قال: فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، قال: فقمته منه قريباً فأبى الله إلا أن يُسمعني بعض قوله، قال: فسمعت كلاماً حسناً، قال: فقلت في نفسي: وأتكل أمي، والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإذا كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته.

قال: فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتبعته، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه، فقلت: محمد، إن قومك قد قالوا كذا كذا، للذي قالوا، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك، فسمعته قولاً حسناً، فأعرض عليّ أمرك، فعرض عليّ رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا عليّ القرآن، فلا والله سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه.

قال: فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت: يا نبي الله، إنني امرؤ مطاع في قومي، وأنا راجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه، فقال: «اللهم اجعل له آية».

قال: فخرجت إلى قومي حتى إذا كنت بثنية تطلعي على الحاضر وقع نور بين عيني مثل المصباح؛ فقلت: اللهم في غير وجهي، إنني أخشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت في وجهي لفراقي دينهم، قال: فتحول فوقع في رأس سوطي، قال: فجعل الحاضرون يتراءون ذلك النور في سوطي كالقنديل المعلق، وأنا أهبط إليهم من الشيا، قال: حتى جئتهم فأصبحت فيهم.

قال: فلما نزلت أتاني أبي، وكان شيخاً كبيراً، قال: فقلت: إليك عني يا أبت، فلست منك ولست مني، قال: ولم يا بني؟ قال: قلت: أسلمت وتابعت دين محمد ﷺ، قال: أي بني، فديني دينك، قال: قلت: فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك، ثم تعال حتى أعلمك ما علمت، قال: فذهب فاغتسل، وطهر ثيابه، قال: ثم جاء فعرضت عليه الإسلام، فأسلم.

قال: ثم أتت صاحبتني، فقلت: إليك عني، فلست منك ولست مني، قالت: لم؟ بأبي أنت وأمي، قال: قلت: قد فرق بيني وبينك الإسلام، وتابعت دين محمد ﷺ، قالت: فديني دينك، قال: قلت: فاذهبي إلى حنا ذي الشرى - قال ابن هشام: يقال: حمى ذي الشرى فتطهري منه.

قال: وكان ذو الشرى صنماً لدوس، وكان الحمى حمى حموه له، وبه وشل^(١) من ماء يهبط من جبل.

قال: فقالت: بأبي أنت وأمي، أتخشى على الصبية من ذي الشرى شيئاً، قال: قلت: لا، أنا ضامن لذلك، فذهب فاغتسلت، ثم عرضت عليها الإسلام، فأسلمت.

ثم دعوت دوساً إلى الإسلام، فأبطئوا عليّ، ثم جئت رسول الله ﷺ بمكة، فقلت له: يا نبي الله، إنه قد غلبني على دوس الرنا^(٢)، فادع الله عليهم، فقال: «اللهم اهد دوساً، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم»، قال: فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الإسلام، حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وحضر غزوة بدر وأحد والخندق، ثم قدمت على رسول الله ﷺ بمن أسلم معي من قومي، ورسول الله ﷺ بخير، حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دوس، ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخير، فأسهم لنا مع المسلمين.

ثم لم أزل مع رسول الله ﷺ حتى إذا فتح الله عليه مكة، قال: قلت: يا رسول الله، ابعثني إلى ذي الكفين صنم عمرو بن حُمة حتى أحرقه.

[المصدر السابق]

(١) الوشل: محرقة. الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة. ولا يتصل قطره. أو لا يكون إلا من أعلى الجبل.

(٢) الرنا: من رنا إليه كجعل. نظر. وجاء يرناً في مشيته يتثاقل فالمقصود: غلبني على دوس تثاقلهم.

وفاة أبي طالب وخديجة وعام الحزن

أما مرض أبي طالب، فلم يزل يشتد به حتى حضرته الوفاة، ودخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال رسول الله ﷺ: «أى عم! قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله» فقالا: يا أبا طالب! أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزال يكلمانه حتى قال آخر ما قال: على ملة عبد المطلب.

فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فنزلت: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، ونزلت ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، وكانت وفاته في شهر رجب أو رمضان سنة عشر من النبوة، وذلك بعد الخروج من الشعب بستة أشهر، وقد كان عضدا وحرزا لرسول الله ﷺ وحصنا احتمت به الدعوة الإسلامية من هجمات الكبراء والسفهاء، ولكنه بقي على ملة الأجداد فلم يفلح كل الفلاح.

قال العباس للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟

قال: «هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ».

خديجة إلى رحمة الله

ولم يندمل جرح رسول الله ﷺ على وفاة أبي طالب حتى توفيت أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وذلك في رمضان من نفس السنة العاشرة بعد وفاة

أبي طالب بنحو شهرين أو بثلاثة أيام فقط^(١)، وكانت وزير صدق لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الإسلام، آزرته على إبلاغ الرسالة، وأسته بنفسها ومالها، وقاسمته الأذى والهموم، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقني حين كذبنى الناس، وأشركني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله ولدها وحرم ولد غيرها»^(٢).

وورد في فضائلها أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَام أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله! هذه خديجة قد أتت، معها إناء فيه إدام طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عِيَهَا السَّلَام من ربها، وبشرها ببیت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب .

وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذكرها دائماً، ويترحم عليها، وتأخذ به الرأفة والرقّة لها كلما ذكرها، وكان يذبح الشاة فيبعث في أصدقائها، لها مناقب جمّة وفضائل كثيرة.

تراكم الأحزان

واشتد البلاء على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قومه بعد موت عمه أبي طالب وزوجه خديجة رَحِمَهُمَا اللَّهُ فَقَدْ تَجَرَّوْا عَلَيْهِ، وكشفوه بالأذى، وطفق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتأثر بشدة بكل ما يحدث، ولو كان أصغر وأهون مما سبق، حتى إن سفيتها من سفهاء قريش نثر التراب على رأسه، فجعلت إحدى بناته تغسله وتبكي، وهو يقول لها: لا تبكي يا بنية! فإن الله مانع أباك، ويقول بين ذلك: «ما

(١) التلقيح لابن الجوزي ص ٧.

(٢) أحمد (٦/١١٨).

نالت قریش منى شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب» [روضة الأنوار].

الإسراء والمعراج

المراد بالإسراء توجه النبي ﷺ ليلاً من مكة المكرمة إلى بيت المقدس، والمراد بالمعراج صعوده ﷺ إلى العالم العلوي، وكان ذلك بجسده الشريف وروحه الأظهر.

والإسراء مذكور في القرآن في قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

أما المعراج فقليل: هو مذكور في سورة النجم من آياتها السابعة إلى الثامنة عشرة، وقيل: المذكور في هذه الآيات غير المعراج.

واختلف في وقت الإسراء والمعراج، فقليل: في السنة التي بعث فيها النبي ﷺ وقيل: سنة خمس من النبوة، وقيل: في ٢٧ رجب سنة عشر من النبوة، وقيل: في ١٧ رمضان سنة اثنتي عشرة من النبوة، وقيل: في المحرم، وقيل: في ١٧ ربيع الأول سنة ١٣ من النبوة.

أما تفصيل القصة فملخص الروايات الصحيحة: أن جبريل عليه السلام جاء بالبراق، وهو دابة فوق الحمار، ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، والنبي ﷺ بالمسجد الحرام، فركبه حتى أتى بيت المقدس ومعه جبريل، فربطه بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخل المسجد، فصلى فيه ركعتين، أمَّ فيهما

الأنبياء، ثم أتاه جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاختر اللبن، فقال جبريل: أصبت الفطرة، هديت وهديت أمتك، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك.

ثم عرج به من بيت المقدس إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبريل ففتح له، فرأى هنالك آدم أبا البشر فسلم عليه، فرد عَلَيْهِ السَّلَامُ، ورحب به، وأقر بنبوته، وعن يمينه أسودة إذا نظر إليهم ضحك وهي أرواح السعداء، وعن يساره أسودة إذا نظر إليهم بكى، وهي أرواح الأشقياء.

ثم عرج إلى السماء الثانية فاستفتح له جبريل ففتح، فرأى فيها ابني الخالة يحيى بن زكريا، وعيسى ابن مريم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فسلم عليهما، فردا عليه ورحبا به وأقرا بنبوته، ثم عرج إلى السماء الثالثة، فرأى فيها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان قد أعطي شطر الحسن، فسلم عليه، فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته.

ثم عرج به إلى السماء الرابعة فرأى فيها إدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ فسلم عليه، فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الخامسة فرأى فيها هارون ابن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ فسلم عليه فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء السادسة فلقي فيها موسى بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ فسلم عليه فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته، فلما جاوزه بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي لأن غلاماً بعث من بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي، ثم عرج به إلى السماء السابعة فلقي فيها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فسلم عليه، فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته، وكان مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وهو بيت يدخله كل يوم سبعون

ألف ملك لا يعودون إليه، ثم رفع إلى سدره المنتهى، فإذا أوراقها كأذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال؛ أي الجرار الكبيرة، ثم غشيتها فراش من ذهب، وغشيتها من أمر الله ما غشيتها، فتغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها.

ثم عرج به إلى الجبار جَلَّ جَلَّالُهُ، فدنا منه، حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه وعلى أمته خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فرجع حتى مر على موسى فقال: بم أمرك ربك؟ قال: بخمسين صلاة، قال: إن أمتك لا تطيق ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فالتفت إلى جبريل، فأشار أن نعم إن شئت، فرجع فوضع عنه عشراً، ثم مر بموسى فسأله فأخبره فأشار إليه بسؤال التخفيف، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عَزَّجَلَّ حتى جعلها خمساً، ثم مر بموسى فأشار بالرجوع وسؤال التخفيف، وقال: والله لقد راودت بني إسرائيل على أدنى من هذا فضعفوا عنه وتركوه، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قد استحييت من ربي، ولكني أرضى وأسلم. فلما بعد نودي أن قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي، هي خمس وهن خمسون، لا يبدل القول لدي»^(١).

ثم رجع عَلَيْهِ السَّلَامُ من ليلته إلى مكة المكرمة، فلما أصبح في قومه أخبرهم بما أراه الله عَزَّجَلَّ من آياته الكبرى، فاشتد تكذيبهم له وأذاهم واستضرارهم عليه، فمنهم من صفق، ومنهم من وضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً، وسعى رجال إلى أبي بكر الصديق، وأخبروه الخبر، فقال: إن كان قال ذلك فقد صدق.

(١) انظر البخاري [٣٨٨٧]، ومسلم (٢٦٢/٢٥٩).

قالوا: أتصدقه على ذلك؟ قال: إني لأصدقه على أبعد من ذلك، أصدقه على خبر السماء في غدوة أو روحة، فسمي الصديق.

وقام الكفار يمتحنونه فسألوه أن يصف لهم بيت المقدس، ولم يكن رآه قبل ذلك، فجلاه الله له حتى عاينه، فطفق يخبرهم عن آياته، يصفه لهم بابًا بابًا وموضعًا موضعًا، فلم يستطيعوا أن يردوا عليه، بل قالوا: أما النعت فو الله لقد أصاب.

وسألوه عن غير لهم قادمة من الشام، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها ووقت قدومها، وعن البعير الذي يقدمها، وكان الأمر كما قال، ولكن أبي الظالمون إلا كفورا.

وصبيحة يوم الإسراء جاء جبريل وعلم رسول الله ﷺ كيفية الصلوات الخمس وأوقاتها، وكانت الصلاة قبل ذلك ركعتين في الصباح، وركعتين في المساء^(١) [المصدر السابق].

الرسول يطلب النصرة من ثقيف

قال ابن إسحاق: ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف، يلتمس النصرة من ثقيف، والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل، فخرج إليهم وحده.

(١) انظر البخاري [٣٨٨٧]، ومسلم (٢٦٢/٢٥٩).

قال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي، قال: لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف، عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو بن عمير، ومسعود بن عمرو بن عمير، وحبيب بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقيدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم رسول الله ﷺ، فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه؛ فقال له أحدهم: هو يمرط^(١) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحدا يرسله غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغي لي أن أكلمك، فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يؤس من خير ثقيف، وقد قال لهم فيما ذكّر لي: «إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني»، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه، فيؤذّرهم ذلك عليه.

قال ابن هشام: فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونهم ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس وألجؤوه إلى حائط لعبنة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من السفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل حَبَلَة^(٢) من عنب، فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف، وقد لقي

(١) يَمْرُطُ: أي ينزعه ويقطعه.

(٢) حَبَلَة: شجرة الكرم.

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما ذَكَرَ لي المرأة التي من بني جمح، فقال لها: «ماذا لقينا من أحمائك؟».

فلما اطمأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال - فيما ذَكَرَ لي: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، إِلَى مَنْ تَكَلَّنِي؟ إِلَى عَدُوِّ يَبْجَهْمُنِي أَمْ إِلَى قَرِيبٍ مَلَكَتْهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ تَكُنْ غَضَبَانًا عَلَيَّ فَلَا أَبَالِي، إِنْ عَافَيْتَكَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورٍ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ تُجِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ^(١)».

قال: فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة وما لقي، تحركت له رحمهما، فدعوا غلامًا لهما نصرانيًا يقال له عداس، فقالا له: خذ قطعًا من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه، ففعل عداس ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم قال له: كُلْ، فلما وضع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه يده، قال: بسم الله، ثم أكل، فنظر عداس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟» قال: أنا رجل نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى؛ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى»؛ فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ذاك أخى، كان نبيًا وأنا نبي»، فأكب عداس على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقبل رأسه ويديه وقدميه.

(١) صححه الألباني في فقه السيرة [١٣٤] مرسلًا.

قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس، قال له: ويلك يا عداس! ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي، قال له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه^(١) [السيرة النبوية لابن هشام].

إيمان الجن عندما يسمعون القرآن

قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (٢٩) قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَنْقُومُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿ [الأحقاف: ٢٩-٣٢].

روى الإمام أحمد والحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه (دلائل النبوة) عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها

(١) تخریج: هذا مثل سابقه.

وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يتبعون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ، وهو بنخلة عامدا إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا - والله - الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك حين رجعوا إلى قومهم، قالوا: يا قومنا، إنا سمعنا قرآنا عجبا، يهدي إلى الرشd فأما به، ولن نشرك بربنا أحدا، وأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]، وإنما أوحى إليه قول الجن، رواه البخاري بنحوه، وأخرجه مسلم ورواه الترمذي والنسائي في التفسير.

وروى الإمام أحمد أيضًا عن ابن عباس، قال: كان الجن يستمعون الوحي، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشرًا، فيكون ما سمعوا حقًا وما زادوا باطلا، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك، فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رمي بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث، فبث جنوده، فإذا بالنبي ﷺ يصلي بين جبلي نخلة، فأتوه فأخبروه، فقال هذا الحدث الذي حدث في الأرض، ورواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعرض نفسه في المواسم على القبائل لنصرته

قال ابن إسحاق: ثم قدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه، إلا قليلاً مستضعفين ممن آمن به؛ فكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعرض نفسه في المواسم إذا كانت على قبائل العرب يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم الله ما بعثه به^(١) [السيرة النبوية لابن هشام].

دعوة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخرج إلى الإسلام

قال ابن إسحاق: فلما أراد الله عَزَّجَلَّ إظهار دينه، وإعزاز نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنجاز مواعده له، خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخرج أراد الله بهم خيراً.

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن أشياخ من قومه، قالوا: لما لقيهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال لهم: «من أنتم؟»، قالوا: نفر من الخرج، قال: «أمن موالى يهود؟» قالوا: نعم، قال: «أفلا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عَزَّجَلَّ، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، قال: وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام، أن يهوداً كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا

(١) أخرجه ابن الأثير في الكامل (٩٣/٢). والطبراني في التاريخ (٥٥٥/١).

قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء، قالوا لهم: إن نبياً مبعوث الآن، قد أظل زمانه، نتبعه فنقاتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلمون والله إنه النبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبتك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه، فلا رجل أعز منك.

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا^(١).

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فما دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ [السيرة النبوية لابن هشام].

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢/٤٣٣). وعند الطبري في تاريخه (١/٥٨٨).

بيعة العقبة الأولى

قال: حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقيه بالعقبة، قال: وهى العقبة الأولى، فبايعوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بيعة النساء^(١)، وذلك قبل أن تفرض عليهم الحرب، منهم من بني النجار، ثم من بني مالك بن النجار: أسعد بن زرارة، وعوف، ومعاذ؛ ابنا الحارث بن رفاعة.

ومن بني عامر بن زريق: رافع بن مالك بن العجلان.

قال ابن هشام: ذكوان، مهاجري أنصاري.

ومن بني عوف بن الخزرج، ثم من بني غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج، وهم القواقل: عبادة بن الصامت؛ وأبو عبد الرحمن، وهو يزيد بن ثعلبة بن خزيمة، من بني غُصينة، من بلى حليف لهم.

قال ابن هشام: وإنما قيل لهم: القواقل؛ لأنهم كانوا إذا استجار بهم الرجل دفعوا له سهمًا، وقالوا له: قو قل به يثرب حيث شئت.

قال ابن هشام: القوقلة: ضرب من المشي.

قال ابن إسحاق: فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معهم مصعب بن عمير، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعُهُنَّ وَاسْتَعْفِفْنَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المتحنة: ١٢].

الدين، فكان يسمى المقرئ بالمدينة: مصعب، وكان منزله على أسعد بن زرارة بن عباس، أبي أمانة^(١).

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة: أنه كان يصلي بهم، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض [المصدر السابق].

إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير

قال ابن إسحاق: خرج أسعد بن زرارة بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل، ودار بني ظَفَر، وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زرارة، فدخل به حائطاً من حوائط بني ظَفَر على بئر يقال لها: بئر مرق، فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير يومئذ سيد قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه، فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حُضير: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما وأنهما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث ما قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أحد عليه مقدما.

قال: فأخذ أسيد بن حُضير حربته ثم أقبل إليهما؛ فلما رآه أسعد بن زُرارة، قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك، فأصدق الله فيه؛ قال مصعب: إن يجلس أكلمه.

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (١/ ٥٥٩). وأورده ابن حجر في فتح الباري (٧/ ٢٦٤).

قال: فوقف عليهما متشتما، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟
اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كففتنا
عنك ما تكره؟

قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مُصعب بالإسلام، وقرأ
عليه القرآن؛ فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم
في إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا
أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالوا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد
شهادة الحق، ثم تصلي، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام
فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من
قومه وسأرسله إليكما الآن؛ سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد
وقومه وهم جلوس في ناديهم؛ فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلا، قال: أحلف
بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم؛ فلما وقف على
النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، فو الله ما رأيت بهما بأسا،
وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُذِّث أن بني حارثة قد خرجوا إلى
أسعد بن زراره ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك، ليحقروك^(١).

قال: فقام إليها مغضباً مبادراً، تخوفاً للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ
الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً، ثم خرج إليهما؛ فلما رآهما
سعد مطمئنين، عرف سعد أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما

(١) ليحقروك: أي لينقضوا عهده.

متشتما، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة، أما والله، ولولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في ديارنا بما نكره؟ وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أي مصعب، جاءك والله سيد من ورائه قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان، قال: فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قالوا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، لإشراقه وتسهيله، ثم قال لهما: وكيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين قالوا: تغتسل فتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين.

قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عامداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير.

قال: فلما رآه قومه مقبلاً، قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم؛ فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبة قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالوا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة، ورجع أسعد ومُصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون.

بيعة العقبة الثانية

قال ابن إسحاق: ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة، وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك، حتى قدموا مكة، فواعدا رسول الله ﷺ العقبة، من أوسط أيام التشريق، حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته، والنصر لنيبه، وإعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله.

قال ابن إسحاق: حدثني معبد بن كعب بن مالك بن أبي كعب بن القين، أخو بني سلمة: أن أخاه عبد الله بن كعب - وكان من أعلم الأنصار - حدثه - وكان كعب ممن شهد العقبة وبايع رسول الله ﷺ بها قال: خرجنا في حجاج قومنا من المشركين، وقد صلينا وفقهنا، ومعنا البراء بن معرور^(١) سيدنا وكبيرنا، فلما وجهنا لسفرنا وخرجنا من المدينة، قال البراء لنا: يا هؤلاء، إني رأيت رأيا، فوالله ما أدري، أتوافقوني عليه، أم لا؟ [السيرة النبوية لابن هشام].

الرسول ﷺ يبائع الأنصار

قال: فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام ثم قال: «أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ». قال: فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه

(١) انظر الاستعاب (١/ ٢٣٦) ترجمة له برقم [١٧١].

أزرنّا^(١)، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرًا عن كابر، قال: فاعترض القول، والبراء يكلم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبًّا وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال: «بَلِ الدِّمُ الدِّمُ، وَالْهَدْمُ الْهَدْمُ أَنَا مِنْكُمْ، وَأَنْتُمْ مِنِّي أَحَارِبُ مِنْ حَارِبْتُمْ، وَأَسَالِمُ مِنْ سَالَمْتُمْ».

قال ابن هشام: ويقال: الهدم الهدم: يعني الحرمة، أي: ذمتي ذمتكم، وحرمتي حرمتكم، قال كعب بن مالك: وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا يَكُونُونَ عَلَى قَوْمِهِمْ». فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبًا، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس^(٢) [المصدر السابق].

الأنصار يستعجلون الجهاد في سبيل الله

قال: ثم قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ارجعوا إلى رحالكم»، قال: فقال له العباس بن عباد بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غدًا بأسيا فإنا قال: فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم» قال: فرجعنا إلى مضاجعنا، فمنا عليها حتى أصبحنا [المصدر السابق].

(١) أزرنّا: جمع الإزار. كناية عن التأييد بقوة. أي نمنعك مما نمنع به شرفنا وعرضنا.

(٢) صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/٦٢٤).

صنم عمرو بن الجموح

قال: فلما قدموا المدينة أظهروا الإسلام بها، وفي قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك؛ منهم عمرو بن الجموح، وكان ابنه معاذ بن عمرو شهد العقبة، وبايع رسول الله ﷺ بها، وكان عمرو بن الجموح سيداً من سادات بني سلمة، وشريفاً من أشرافهم، وكان قد اتخذ في داره صنماً من خشب، يقال له: مناة، كما كانت الأشراف يصنعون، تتخذها إلهاً تعظمه وتطهره.

فلما أسلم فتيان بني سلمة: معاذ بن جبل، وابن معاذ بن عمرو بن الجموح، في فتيان منهم ممن أسلم وشهد العقبة، كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك، فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة وفيها عذر الناس^(١)، مُنْكَسَا على رأسه؛ فإذا أصبح عمرو، قال: ويلكم! من عدا على آلهتنا هذه الليلة؟

قال: ثم يغدو يلتمسه، حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه، ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزيته، فإذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه، ففعلوا به مثل ذلك فيغدو؛ فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى، فيغسله ويطهره ويطيبه ثم يعدون عليه إذا أمسى، فيفعلون به مثل ذلك، فلما كثروا عليه، استخرجوه من حيث ألقوه يوماً، فغسله وطهره وطيبه ثم جاء بسيفه فعلقه عليه.

ثم قال: إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى، فإن كان فيك خير فامتنع، فهذا السيف معك، فلما أمسى ونام عمرو، عدوا عليه، فأخذوا السيف من عنقه

(١) عذر الناس: جمع عذرة: وهي الغائط والنجس.

ثم أخذوا كلبًا ميتًا فقرنوه به بحبل ثم ألقيوه في بئر من آبار بني سلمة، فيها عذر من عذر الناس ثم عدا عمرو بن الجموح، فلم يجده في مكانه الذي كان به.

شعر عمرو بن الجموح بعد إسلامه

فخرج يتبعه حتى أوجده في تلك البئر منكسًا مقرونًا بكلب ميت، فما رآه وأبصر شأنه، وكلمه من أسلم من رجال قومه، فأسلم برحمة الله، وحسن إسلامه. فقال حين أسلم وعرف من الله ما عرف، وهو يذكر صنمه ذلك وما أبصر من أمره، ويشكر الله تعالى الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة:

والله لو كنت إلهًا لم تكن أنت وكلب وسط بئر في قرن
أف لملقائك إلهًا مستدن الآن فتشناك عن سوء الغبن
الحمد لله العلى ذى المنن الوهاب الرزاق ديان الدين
هو الذى أنقذنى من أن أكون في ظلمة قبرٍ مرتهن

[المصدر السابق]

البيعة على حرب الأسود والأحمر

قال ابن إسحاق: وكانت بيعة الحرب، حين أذن رسول الله ﷺ في القتال شروطًا سوى شرطه عليهم في العقبة الأولى، كانت الأولى على بيعة النساء، وذلك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسوله ﷺ في الحرب، فلما أذن الله له فيها، وبايعهم رسول الله ﷺ في العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود، أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة.

قال ابن إسحاق: فحدثني عباد بن الوليد بن عباد بن الصامت، عن أبيه الوليد، عن جده عباد بن الصامت، وكان أحد النقباء، قال: بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب وكان عباد من الاثنى عشر الذين بايعوه في العقبة الأولى على بيعة النساء على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثره علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم^(١) [المصدر السابق].

أول من هاجر إلى المدينة

فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين من قريش، من بني مخزوم: أبو سلمة، واسمه: عبد الله، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة، وكان قدم على رسول الله ﷺ مكة من أرض الحبشة، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار، خرج إلى المدينة مهاجرًا.

هجرة أبي سلمة ومحنته أم سلمة

قال ابن إسحاق: فحدثني أبي إسحاق بن يسار، عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة، عن جدته أم سلمة، زوج النبي ﷺ، قالت: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بغيره ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بي بغيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، رأيت

(١) أخرجه البخاري (٧١٩٩-٧٢٠٠)، ومسلم [١٤٧٠].

صاحبتك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟

قالت: فتزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه، قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، قالت: فتجاذبوا بُنيَّ سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة.

قالت: ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني، قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي سنة أو قريباً منها حتى مر بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة، فرأى ما بي فرحماني. فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها! قالت: فقالوا لي: الحقّي بزوجك إن شئت، قالت: ورد بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني، قالت: فارتحلت ببعيري ثم أخذت ابني فوضعتة في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة.

قالت: وما معي أحد من خلق الله، قالت: فقلت: أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي؛ حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، أخا بني عبد الدار، فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة، قال: أو ما معك أحد؟ قالت: فقلت: لا والله إلا الله وبني هذا، قال: والله مالك من مترك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط، أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ثم استأخر عني

حتى إذا انزلت أستأخر ببعيري، فحط عنه، ثم قيده في الشجرة ثم تنحى عني إلى شجرة فاضطجع تحتها.

فإذا دنا الرواح، قام إلى بعيري فقدمه فرحله، ثم استأخر عني، وقال: اركبي، فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاده، حتى ينزل بي فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقاء، قال: زوجك في هذه القرية، وكان أبو سلمة، نازلاً بها فادخلها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة.

قال: فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة [المصدر السابق].

أوائل المهاجرين إلى المدينة المنورة

قال ابن إسحاق: ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبي سلمة: عامر بن ربيعة، حليف بني عدي بن كعب، معه امرأته ليلى بنت أبي حثمة، ثم عبد الله بن جحش، احتمل بأهله وبأخيه عبد الله بن جحش، وهو أبو أحمد [المصدر السابق].

تعجل أبي بكر هجرة الرسول ﷺ

وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حُبس أو فتن، إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكان أبو بكر كثيراً

ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فيقول له رسول الله ﷺ: «لَا تَعْجَلْ؛ لَعَلَّ اللَّهَ يَجْعَلُ لَكَ صَاحِبًا، فَيَطْمَعَ أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَكُونَ هُوَ» [المصدر السابق].

دروس وعبر من هجرة الرسول ﷺ

١- عصمة الله لرسوله من القتل

ذكر ابن هشام أن أبا جهل قال: أرى أن تأخذوا من كل بطن قريش شابًا نسبيًا وسطًا فتياً ثم نعطي كل فتى سيفًا صارمًا ثم يضربونه جميعًا ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، ولا أظن بني هاشم يقاتلوننا كافة، فإذا لم يبق أمامهم إلا الدية أديناها، ورضى المؤتمر بهذا الحل للمشكلة التي حيرتهم وقاموا على فعلها، وقد أشار القرآن إلى تدبير هذه الجريمة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

٢- أذن الله لنبيه ﷺ بالهجرة

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كنت في بيت أبي بكر فجاء رسول الله ﷺ فقال لأبي بكر: «أخرج من عندك» فقال أبو بكر: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قال: «فَإِنَّهُ قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ»، لأن رسول الله ﷺ لا يفعل شيئًا إلا بأمر الله تعالى، فكذلك ينبغي أن يكون المسلم لا يفعل شيئًا ولا يترك شيئًا في الدين إلا بأمر الله تعالى.

٣- الأخذ بالأسباب

فإن النبي ﷺ أخذ بالأسباب وقلبه مشغول بالتوكل على الله، وكذلك ينبغي على المسلم أن يتوكل على الله بقلبه ويأخذ بالأسباب ويعلم أنه قد يأخذ بجميع الأسباب كلها ويفشل، وقد تنعدم جميع الأسباب وتجد التيسير والفرج من عند الله، لأن الأسباب بيد مسبب الأسباب.

اتخاذ الراحلة

علف أبو بكر راحلتين كانتا عنده من ورق السمر أربعة أشهر، فقال أبو بكر: فخذ، بأبي أنت يا رسول الله، إحدى راحلتي هاتين، قال رسول الله ﷺ: بالثمن، قالت عائشة: فجهزناها أحسن الجهاز ووضعنا لهما سفرة في جراب.

اختيار صاحب

كما قيل: الرفيق قبل الطريق، فالنبي ﷺ اختار أبا بكر لصحبته في الهجرة، ونعم صاحب، وكان أبو بكر الصديق يمشي خلف الرسول ﷺ تارة أمامه وتارة من خلفه وعن يمينه تارة وعن شماله تارة خوفاً عليه أن يؤذيه أحد وأعطى رسول الله ﷺ كوب لبن فقال: «شَرِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى رَضِيتُ» [صحيح البخاري]

الاستغناء في الغار

قالت عائشة: لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور فأقاما فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قریش بمكة كبائت، فلا يسمع شيئاً يكاد لهما فيه إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حتى يختلط الظلام.

اتخاذ دليل

قالت عائشة: استأجر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر رجلاً من الدليل وهو من بني عدي هادياً خريئاً، والخريت الماهر بالهداية.

مبيت علي بن أبي طالب مكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الفراش

٤- نصره الله تعالى لأوليائه

قال تعالى: ﴿إِلَّا نَضُرُّهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ فَاَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: يقول الله تعالى: ﴿إِلَّا نَضُرُّهُ﴾ أي تنصروا رسوله فإن الله ناصرهم ومؤيده وكافيه وحافظه كما تولى نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ أي: عام الهجرة لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه فخرج منهم هارباً وصاحبه أبو بكر، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ثم يسيروا نحو المدينة، فجعل أبو بكر يجزع أن يطلع عليهم فيخلص إلى الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما روى الإمام أحمد عن أبي بكر قال: قلت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، قال: فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ ولهذا قال تعالى: ﴿فَاَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أي: تأييده ونصره عليه، أي: على الرسول، وقيل: على أبي بكر، ولهذا قال ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ أي: الملائكة ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾

وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾، قال ابن عباس: يعني ﴿كَلِمَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الشُّرْكُ ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ﴾ هي لا إله إلا الله وقوله ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: في انتقامه وانتصاره منيع الجنب لا يضام من لا ذبابة به واحتى به سبحانه ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله.

وكذلك ينصر أوليائه، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

٥- عناية الله سبحانه وتعالى برسوله

بالرغم من كل الأسباب التي أخذها رسول الله ﷺ إلا أنه كان دائم الدعاء بالصيغة التي علمه الله إياها، قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

٦- استقبال الأنصار لرسول الله ﷺ

لما سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة كانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرون حتى يردهم حر الظهيرة، حتى قدم رسول الله، فكان يوم فرح وابتهاج لم يُر مثله، ولبس الناس أحسن ملابسهم كأنهم في يوم عيد، روى الإمام مسلم بسنده قال: عندما دخل رسول الله صعد الرجال والنساء فوق البيوت وتفرق الخدم في الطرق ينادون: يا محمد، يا رسول الله.

٧- الصراع بين الحق والباطل

وهو سنة إلهية، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

٨- الهجرة من سنن الرسل الكرام

فقد هاجر عدد من إخوانه من الأنبياء من أوطانهم لنفس الأسباب التي دعت نبينا صلى الله عليه وسلم إلى الهجرة مثل إبراهيم ولوط وموسى عليهم السلام.

وقال ورقة بن نوفل للنبي صلى الله عليه وسلم عندما قص عليه ما رآه في الغار: «يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟» فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدْعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَوْ مُخْرِجِيْ هُمْ»، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُّؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوفِّيَ [رواه البخاري].

٩- الهجرة تضحية عظيمة

لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عن مكة: «وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ اللَّهُ، وَلَوْلَا أَنِّي أَخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ» [رواه الإمام أحمد].

١٠- مغفرة ذنوبهم ودخول الجنة

قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُفِثَ بِبَعْضِكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا وَقُتِلُوا

لَا كُفْرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا ذُحْلَنَّهُمْ جَنَّتِ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ [آل عمران: ١٩٥].

١١- ارتفاع منزلتهم وعظمت درجاتهم عند ربهم

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنِ الْمُتَجَرِّبِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وكذا أخي المسلم لك من هجرته وسيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأسوة الحسنة.

[السيرة النبوية للصلاحي]

قباء مقدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة

قال ابن إسحاق: فحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير، عن عبد الرحمن بن عويمر بن ساعدة، قال: حدثني رجال من قومي من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالوا: لما سمعنا بمخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة، وتوكلنا قدومه، كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرتنا ننتظر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فو الله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال فإذا لم نجد ظلا دخلنا، وذلك في أيام حارة، حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جلسنا كما كنا نجلس، حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا، وقدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين دخلنا البيوت فكان أول من رآه رجل من اليهود، وقد رأى ما كنا نصنع، وأنا ننتظر قدوم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علينا، فصرخ بأعلى صوته: يا بني قيلة، هذا جدكم قد جاء.

قال: فخرجنا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في ظل نخلة ومعه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مثل سنه، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل ذلك، وركبه الناس وما يعرفونه من أبي بكر حتى زال الظل عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقام أبو بكر فأظله بردائه، فعرفناه عند ذلك^(١) [السيرة النبوية لابن هشام].

الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤسس مسجد قباء

قال ابن إسحاق: فأقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقباء في بني عمرو بن عوف يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وأسس مسجده^(٢).

ثم أخرجه الله من بين أظهرهم يوم الجمعة، وبنو عمرو بن عوف يزعمون أنه مكث فيهم أكثر من ذلك، فالله أعلم أي ذلك كان، فأدرت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجمعة في بني سالم بن عوف، فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي، وادي راثوناء، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة [المصدر السابق].

الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينزل على أبي أيوب الأنصار

حتى إذا أتت بني مالك بن النجار بركت على باب مسجده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو يومئذ مربد^(٣) لغلामين يتيمين من بني النجار، ثم من بني مالك بن النجار، وهما في حجر معاذ بن عفراء، سهل وسهيل ابني عمرو، فلما بركت ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليها لم ينزل، وثبت فسارت غير بعيد، ورسول الله

(١) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه [٣٩٣٢].

(٣) الربد: موقف الإبل ومحبسها. والمكان يجفف فيه التمر.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واضع لها زمامها لا يثنيها به، ثم التفتت إلى خلفها، فرجعت إلى مبركها أول مرة، فبركت فيه ثم تحلحلت^(١) وأرزمت ووضعت جرانها، فنزل عنها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله فوضعه في بيته ونزل عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسأل عن المربد: لمن هو؟ فقال له معاذ بن عفراء: هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو، وهما يتيمان لي، وسأرضيهما منه، فاتخذة مسجداً [المصدر السابق].

بناء مسجد المدينة

قال: فأمر به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبني مسجداً، ونزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه، فعمل فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليرغب المسلمين في العمل فيه، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه، فقال قائل من المسلمين:

لئن قعدنا والنبي يعمل لذلك منا العمل الظل

وارتجز المسلمون وهم يبنونه يقولون:

لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة

قال ابن هشام: هذا كلام وليس برجز.

قال ابن إسحاق: فيقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا عيش إلا عيش الآخرة، اللهم

ارحم المهاجرين والأنصار^(٢)» [المصدر السابق].

(١) تحلحلت: تحركت من ثبات في مكانها. وأرزمت: أصدرت صوتاً خفيفاً. والجران: يقال: ضرب الشيء.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه [٣٩٦٠].

إقامة رسول الله ﷺ في بيت أبي أيوب

قال ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ في بيت أبي أيوب حتى بُنيَ له مسجده ومساكنه ثم انتقل إلى مساكنه من بيت أبي أيوب رحمة الله عليه ورضوانه.

قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن أبي حبيب، عن مرثد بن عبد الله اليزني، عن أبي رهم السماعي، قال: حدثني أبو أيوب، قال: لما نزل على رسول الله ﷺ في بيتي، نزل في السفلى، وأنا وأم أيوب في العلو، فقلت له: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، إنى لأكره وأعظم أن أكون فوقك، وتكون تحتي، فظهر أنت فكن في العلو، ونزل نحن فنكون في السفلى؛ فقال: «يا أبو أيوب، إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفلى البيت»^(١).

قال: فكان رسول الله ﷺ في سفله، وكنا فوقه في المسكن؛ فلقد انكسر حُب لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا، ما لنا لحاف غيرها، نشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه.

[المصدر السابق]

الرسول ﷺ يؤاخي بين المهاجرين والأنصار

قال ابن إسحاق: وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار.

(١) صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه.

وكان حمزة بن عبد المطلب أسد رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وزيد بن حارثة مولى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخوين وإليه أوصى حمزة يوم أحد حين حضره القتال إن حدث به حادث الموت، وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين الطيار في الجنة ومعاذ بن جبل أخو بني سلمة أخوين^(١).

قال ابن هشام: وكان جعفر بن أبي طالب يومئذ غائباً بأرض الحبشة.

قال ابن إسحاق: وكان أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بن أبي قحافة وخارجة بن زيد بن أبي زهير أخوين، وعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعتبان بن مالك أخو بني سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج أخوين، وأبو عبيد بن عبد الله بن الجراح واسمه عامر بن عبد الله، وسعد بن معاذ بن النعمان أخو بني عبد الأشهل أخوين، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن الربيع أخو بلحارث بن الخزرج أخوين.

والزبير بن العوام وسلمة بن سلامة بن وقش أخو بني عبد الأشهل أخوين. ويقال: بل الزبير وعبد الله بن مسعود، حليف بني زهرة أخوين^(٢). وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت بن المنذر أخو بني النجار أخوين، وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك أخو بني سلمة أخوين، وسعد بن زيد بن عمرو بن نفيل وأبي بن كعب أخو بني النجار أخوين، ومصعب بن عمير بن هاشم وأبو أيوب خالد بن زيد أخو بني النجار أخوين، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وعبد بن بشر بن

(١) منكر: أنكره الواقدي. وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٢٢٧): فيه نظر.

(٢) صحيح: قال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري (٧/ ٣١٨): رواه ابن عبد البر بإسناد حسن.

وقش أخو بني عبد الأشهل أخوين، وعمار بن ياسر حليف بني مخزوم وحذيفة بن اليمان أخو بني عبد عيس حليف بني عبد الأشهل أخوين، ويقال: ثابت بن قيس بن الشماس أخو بلحارث بن الخزرج خطيب رسول الله ﷺ وعمار بن ياسر أخوين، وأبو ذر وهو برير بن جنادة الغفاري والمنذر بن عمرو المَعْنَقُ ليموت أخو بني ساعدة بن كعب بن الخزرج أخوين [المصدر السابق].

موت أسعد بن زُرارة

قال ابن إسحاق: وهلك في تلك الأشهر أبو أمامة أسعد بن زُرارة والمسجد يبنى أخذته الذبحة أو الشبهة [المصدر السابق].

رؤيا الأذان وإقراره

قال ابن إسحاق: فلما اطمأن رسول الله ﷺ بالمدينة، واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين، واجتمع أمر الأنصار، استحکم أمر الإسلام، فقامت الصلاة، وفُرضت الزكاة والصيام، وقامت الحدود، وفرض الحلال والحرام، وتبوا الإسلام بين أظهرهم، وكان هذا الحي من الأنصار هم الذين تبوؤا الدار والإيمان^(١). وقد كان رسول الله ﷺ حين قدمها، إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة، فهم رسول الله ﷺ حين قدمها أن يجعل بوقا كبوق يهود الذين يدعون به لصلاتهم، ثم كرهه ثم أمر بالناقوس، فنحت ليضرب به للمسلمين للصلاة.

(١) قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

فبينما هم على ذلك، إذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه، أخو بلحارث بن الخزرج النداء، فأتى رسول الله ﷺ، فقال له: يا رسول الله، إنه طاف بي هذه الليلة طائف، مر بي رجل عليه ثوبان أخضران، يحمل ناقوساً في يده، فقلت له: يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قلت: أنادي به للصلاة، قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟ تقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله.

فلما أخبر بها رسول الله ﷺ، قال: «إنها الرؤيا حق، إن شاء الله، فقم مع بلال فألقها عليه، فليؤذن بها، فإنه أندى صوتاً منك». فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب، وهو في بيته، فخرج إلى رسول الله ﷺ، وهو يجر رداءه، وهو يقول: يا نبي الله، والذي بعثك بالحق، لقد رأيت مثل الذي رأى؛ فقال رسول الله ﷺ: «فلله الحمد على ذلك»^(١) [المصدر السابق].

من ناصب رسول الله ﷺ من اليهود

قال ابن إسحاق: ونصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله ﷺ العداوة بغياً وحسداً وضغناً^(٢) لما خص الله تعالى به العرب من أخذهم رسوله

(١) صحيح: صححه ابن حجر في تلخيص الحبير (٢/٢٠٨).

(٢) الضغن: الحقد والبغض الشديد.

منهم، وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ممن كان على جاهليته^(١) فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه، فظهروا بالإسلام، واتخذوه جنة من القتل، وناقضوا في السر، وكان هواهم مع اليهود لتكذيبهم النبي ﷺ وجحودهم الإسلام، وكانت أخبار يهودهم الذين يسألون رسول الله ﷺ ويتعتنونه، ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل، فكان القرآن ينزل فيهم فيما يسألون عنه، إلا قليلاً من المسائل في الحلال والحرام كان المسلمون يسألون عنها [المصدر السابق].

عبد الله بن سلام حبر اليهود عندما أسلم

قال ابن إسحاق: وكان من حديث عبد الله بن سلام، كما حدثني بعض أهله عنه وعن إسلامه حين أسلم، وكان حبراً عالمًا، قال: لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوكف له^(٢) فكنت مسرًا لذلك، صامتًا عليه، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلما نزل بقباء، في بني عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة، فلما سمعت الخبر بقدم رسول الله ﷺ كبرت؛ فقالت لي عمتي، حين سمعت تكبيري: خيك الله، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادمًا ما زدت، قال: فقلت لها: أي عمه، هو والله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه، بعث بما بعث به، قال: فقالت:

(١) عسى على جاهليته: ممن رجا في جاهليته خيرًا فبقى عليها واستمر فيها.

(٢) نتوكف: نتنظر خبره ولقاءه.

أي ابن أخي، أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة؟ قال: فقلت لها: نعم، قال: فقالت: فذاك إذا، قال: ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت، ثم رجعت إلى أهل بيتي، فأمرتهم فأسلموا.

قال: وكتمت إسلامي من يهود، ثم جئت رسول الله ﷺ، فقلت له: يا رسول الله، إن يهود قوم بهت، وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك، وتغيبنني عنهم، ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم، قبل أن يعلموا بإسلامي، فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني، قال: فأدخلني رسول الله ﷺ في بعض بيوته ودخلوا عليه، فكلموه وساءلوه، ثم قال لهم: «أي رجل الحصين بن سلام فيكم؟» قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وعالمنا، قال: فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم، فقلت لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله ﷺ، وأؤمن به وأصدق به وأعرفه، فقالوا: كذبت، ثم وقعوا بي، قال: فقلت لرسول الله ﷺ: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور! قال: فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث، فحسن إسلامها^(١) [المصدر السابق].

إجابة النبي ﷺ على أسئلة اليهود

قال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين المكي، عن شهر بن حوشب الأشعري: أن نفرًا من أحبار يهود جاءوا رسول الله ﷺ،

(١) صحيح: أخرجه بنحوه البخاري في صحيحه.

فقالوا: يا محمد، أخبرنا عن أربع نسألك عنهن، فإن فعلت ذلك اتبعناك وصدقناك، وآمنا بك.

قال: فقال لهم رسول الله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِذَلِكَ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ لِيَنْ أَنَا أَخْبَرْتُكُمْ بِذَلِكَ لِتَصَدَّقُونِي» قالوا: نَعَمْ، قَالَ ﷺ: «فَاسْأَلُوا عَمَّا بَدَأَ لَكُمْ». فَقَالُوا: أَخْبِرْنَا كَيْفَ يُشَبِّهُ الْوَلَدُ أُمَّهُ وَإِنَّمَا النُّطْفَةُ مِنَ الرَّجُلِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْشِدُكُمْ بِاللَّهِ وَبِأَيَّامِهِ عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ نُطْفَةَ الرَّجُلِ بَيْضَاءُ غَلِيظَةٌ، وَنُطْفَةُ الْمَرْأَةِ صَفْرَاءُ رُقِيقَةٌ، فَأَيُّهُمَا غَلَبَتْ صَاحِبَتَهَا كَانَ لَهَا الشَّيْبُ؟» قالوا: اللهم نعم، قالوا: فأخبرنا كيف نومك؟ فقال: «أَنْشِدُكُمْ بِاللَّهِ وَبِأَيَّامِهِ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ نَوْمَ الَّذِي تَزْعُمُونَ أَنِّي لَسْتُ بِهِ تَنَامُ عَيْنُهُ وَقَلْبُهُ يَقْظَانُ؟» فقالوا: اللهم نعم؛ قال: «وَكَذَلِكَ نَوْمِي تَنَامُ عَيْنِي وَقَلْبِي يَقْظَانُ؟».

قالوا: فأخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: «أَنْشِدُكُمْ بِاللَّهِ وَبِأَيَّامِهِ عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ كَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُ الْإِبِلِ وَأَنَّهُ اشْتَكَى شَكْوَى فَعَافَاهُ اللَّهُ مِنْهَا فَحَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ أَحَبَّ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَيْهِ شَكْرًا لِلَّهِ فَحَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ لُحُومَ الْإِبِلِ وَالْأَبْنَاهَا؟» قالوا: اللهم نعم.

قالوا: فأخبرنا عن الروح؟ قال: «أَنْشِدُكُمْ بِاللَّهِ وَبِأَيَّامِهِ عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ هَلْ تَعْلَمُونَ جَبْرِيلَ وَهُوَ الَّذِي يَأْتِينِي؟» قالوا: اللهم نعم، ولكنه يا محمد لنا عدو، وهو ملك، إنما يأتي بالشدة وبسفك الدماء، ولولا ذلك لا تبعناك؛ قال: فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ

يَدِيهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٦﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٧﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ﴿١٠٩﴾ أَيِ السَّحَرِ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ٩٧-١٠٢].

قال ابن إسحاق: وذلك أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فيما بلغني - لما ذكر سليمان بن داود في المرسلين، قال بعض أخبارهم: ألا تعجبون من محمد، يزعم أن سليمان بن داود كان نبياً، والله ما كان إلا ساحراً، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ أي باتباعهم السحر وعلمهم به، ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض من لا أتهم عن عكرمة، عن ابن عباس، أنه كان يقول: الذي حرم إسرائيل على نفسه زائدتا الكبد والكليتان والشحم، إلا ما كان على الظهر، فإن ذلك كان يُقَرَّبُ للقربان، فتأكله النار^(١).

فتنة اليهود عند تحويل القبلة إلى الكعبة

قال ابن إسحاق: ولما صرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة، وصُرفت في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة، أتى

(١) أخرجه الترمذي في سننه [٣١١٧].

رسول الله ﷺ رفاعه بن قيس، وقردم بن عمرو، وكعب بن الأشرف، ورافع بن أبي رافع، والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف، والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، فقالوا: يا محمد، ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟ ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك، وإنما يريدون بذلك فتنه عن دينه. فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ۖ أَيُّ ابْتِلَاءٍ وَابْتِلَاءًا: ﴿وَأِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ أَيُّ مِنَ الْفِتْنِ: أَيُّ الَّذِينَ ثَبَتَ اللَّهُ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ ۖ أَيُّ إِيمَانِكُمْ بِالْقِبْلَةِ الْأُولَى، وَتَصَدِّقُكُمْ نَبِيِّكُمْ، وَاتَّبَاعُكُمْ إِيَّاهُ إِلَى الْقِبْلَةِ الْآخِرَةِ، وَطَاعَتُكُمْ نَبِيِّكُمْ فِيهِمَا: أَيُّ لِيُعْطِيَكُمْ أَجْرَهُمَا جَمِيعًا ۖ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٢-١٤٣].

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ رَأَى تَقَلُّبُ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٠٢].

اليهود يكتُمون ما في التوراة

وسأل معاذ بن جبل أخو بني سلمة، وسعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل، وخارجة بن زيد أخو بلحارث بن الخزرج، نفرًا من أحبار يهود عن بعض ما

في التوراة، فكتموهم إياه، وأبوا أن يخبروهم عنه، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

قال: ودعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اليهود من أهل الكتاب إلى الإسلام ورغبهم فيه، وحذرهم عذاب الله ونقمته؛ فقال له رافع بن خارجه، ومالك بن عوف: بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا أعلم وخيرًا منا، فأنزل الله عَزَّجَلَّ في ذلك من قولهما: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَٰئِكَ عَابَهُمُ الْكَاذِبُونَ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينذر اليهود بعد غزوة بدر

ولما أصاب الله عَزَّجَلَّ قريشًا يوم بدر جمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يهود في سوق بني قينقاع حين قدم المدينة، فقال: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قُرَيْشًا، فقالوا له: يا محمد، لا يغرناك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش، كانوا أعمارًا لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلنا لعرفت أننا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسَّرَ اللَّهُ لَكُمْ آيَةً فِي فَتْنٍ أَلْتَقَيْنَا فِيهَا تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٢-١٣].

سعي اليهود بالفتنة بين الأنصار

قال ابن إسحاق: ومرو شأس بن قيس - وكان شيخاً قد عسا، عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم - على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم، يتحدثون فيه، فغاضه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ من قيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً من يهود كان معهم، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بعث وما كان قبله وأنشدكم بعض ما كانوا يقولوا فيه من الأشعار.

اليهود الذين حزبوا الأحزاب

قال ابن إسحاق: وكان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة: حُيَيُّ بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق أبو رافع، والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق، وأبو عمار، ووَخُوح بن عامر، وهوذة بن قيس، فأما وَخُوح، وأبو عمار، وهوذة، فمن بني وائل، وكان سائرهم من بني النضير، فلما قدموا على قريش قالوا: هؤلاء أحبار يهود، وأهل العلم بالكتاب الأول، فسلوهم: أدينكم خير أم دين محمد؟ فسألوهم، فقالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَبَتِ وَالطَّغُوتِ ﴾ [النساء: ٥١].

قال ابن هشام: الجبت (عند العرب): ما عبد من دون الله تبارك وتعالى، والطاغوت: كل ما أضل عن الحق، وجمع الجبت: جبوت؛ وجمع الطاغوت: طاغيت.

قال ابن هشام: وبلغنا عن ابن أبي نجيح أنه قال: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان، ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

قال ابن إسحاق: إلى قول تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

قال ابن إسحاق: وقال سكين وعدي بن زيد: يا محمد، ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهما: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣] ورُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا [النساء: ١٦٤] رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا [النساء: ١٦٥-١٦٦].

ودخلت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جماعة منهم، فقال لهم: «أما والله إنكم لتعلمون أني رسول من الله إليكم»، ما نعلمه، وما نشهد عليه، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

أهم غزوات الرسول ﷺ

غزوة بدر الكبرى

وهي أول معركة فاصلة بين قريش والمسلمين، وسببها أن رسول الله ﷺ كان بالمرصاد للغير التي فاتته إلى الشام حينما خرج إلى ذي العشيرة، وأرسل لها رجلين إلى الحوراء من أرض الشام ليأتيا بخبرها، فلما مرت بهما الغير أسرعوا إلى المدينة، فندب لها رسول الله ﷺ المسلمين، ولم يعزم عليهم الخروج، فانتدب ٣١٣ رجلاً وقيل: ٣١٧ وقيل ٣١٤ رجلاً - ٨٢ أو ٨٣ أو ٨٦ من المهاجرين و ٦١ من الأوس، و ١٧٠ من الخزرج ولم يتخذ هؤلاء أهبتهم الكاملة، فلم يكن معهم إلا فرسان وسبعون بعيراً فقط^(١).

وعقد رسول الله ﷺ لواء أبيض دفعه لمصعب بن عمير، وكان للمهاجرين علم يحمله علي بن أبي طالب، وللأنصار علم يحمله سعد بن معاذ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، ثم أرسل مكانه من الروحاء أبا لبابة بن عبد المنذر.

وخرج رسول الله ﷺ من المدينة يريد بدرًا، وهو موضع على بعد ١٥٥ كيلو مترًا جنوب غربي المدينة تحيط به جبال شواهق من كل جانب، وليس فيه إلا ثلاث منافذ، منفذ في الجنوب، وهو العدو القصوى، ومنفذ في الشمال وهو العدو الدنيا، ومنفذ في الشرق قريبًا من منفذ الشمال يدخل منه

(١) أبو يعلى في مسنده (٢٤٢/١) [٢٨٠]، (٢٦٠/١) [٣٠٥]، وأحمد (١/١٢٥، ١٣٨).

أهل المدينة، وكان طريق القوافل الرئيسي بين مكة والشام يمر من داخل هذا المحيط، وكان فيه المساكن والآبار والنخيل فكانت تنزل القوافل، وتقيم فيه ساعات وأيامًا، فكان من السهل جدًا أن يسد المسلمون هذه المنافذ بعد ما تنزل العير في هذا المحيط، فتضطر إلى الاستسلام، ولكن من لوازم هذا التدبير أن لا يشعر أهل العير بخروج المسلمين إطلاقًا، حتى ينزلوا ببدر على غرة، ولذلك سلك رسول الله ﷺ أول ما سلك طريقًا آخر غير طريق بدر ثم تأنى في التقدم إلى جهة بدر.

أما العير فكان قوامها ألف بعير موقرة بأموال لا تقل عن خمسين ألف دينار، وكان رئيسها أبا سفيان، ومعه نحو أربعين رجلًا فقط، وكان أبو سفيان في غاية التيقظ والحذر، يسأل كل غاد ورائح عن تحركات المسلمين، حتى علم بخروج المسلمين من المدينة، وهو على بعد غير قليل من بدر، فحول اتجاه العير إلى الغرب ليسلك طريق الساحل، ويترك طريق بدر إطلاقًا، واستأجر رجلًا يخبر أهل مكة بخروج المسلمين بأسرع ما يمكن، فلما بلغهم النذير استعدوا سرعًا وأوعبوا في الخروج، فلم يتخلف من كبرائهم إلا أبو لهب، وحشدوا من حولهم من القبائل ولم يتخلف من بطون قريش إلا بنو عدي.

ولما وصل هذا الجيش إلى الجحفة بلغتهم رسالة أبي سفيان يخبرهم بنجاته ويطلب منهم العودة إلى مكة، وهمَّ الناس بالرجوع ولكن أبى ذلك أبو جهل استكبارًا ونخوة، فلم يرجع إلا بنو زهرة، أشار عليهم بذلك حليفهم ورئيسهم الأخنس بن شريق الثقفي، وكانوا ثلاثمائة، أما البقية وهم ألف، فواصلوا سيرهم

حتى نزلوا قريباً من العدو القصوى، خارج بدر، في ميدان فسيح، وراء الجبال المحيطة ببدر.

أما رسول الله ﷺ فقد علم بخروج أهل مكة، وهو في الطريق، فاستشار المسلمين، فقام أبو بكر فتكلم وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فتكلم وأحسن، ثم قام المقداد فقال: والله يا رسول الله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك، فأشرق وجه رسول الله ﷺ وسر بذلك.

ثم قال: أشيروا عليّ أيها المسلمون، فقام سعد بن معاذ رئيس الأنصار وقال: كأنك تعرض بنا يا رسول الله، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، ولعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، وقال فيما قال: والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك، فسر رسول الله ﷺ ثم قال: سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم.

ثم تقدم إلى بدر فوصلها في نفس الليلة التي وصل فيها المشركون فنزل في داخل ميدان بدر قريباً من العدو الدنيا، فأشار عليه الحباب بن المنذر أن يتقدم

فينزل على أقرب ماء من العدو حتى يصنع المسلمون حياضاً يجمعون فيها الماء لأنفسهم، ويغورون الآبار فيبقى العدو ولا ماء له، ففعل وبنى المسلمون عريشاً يكون مقر قيادته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعينوا له حارساً من شباب الأنصار تحت قيادة سعد بن معاذ.

ثم عبأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجيش وتجول في ميدان القتال وهو يشير بيده ويقول: هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله، ثم بات يصلي إلى جذع شجرة، وبات المسلمون مستريحين تغمرهم الثقة، وكان الله قد أنزل المطر كما قال: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ الْغَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

وفي الصباح وهو صباح يوم الجمعة ١٧ من شهر رمضان سنة ٢هـ تراءى الجمعان، فدعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ هَذِهِ قُرَيْشٌ، قَدْ أَقْبَلَتْ بِخِيَلِهَا، وَفَخَرِهَا، تُحَادِّثُكَ، وَتُكَذِّبُ رُسُولَكَ اللَّهُمَّ فنصرك الذي وعدتني اللَّهُمَّ احْنِهِمُ الْغَدَاةَ». ثم عدل الصفوف، وأمرهم أن لا يبدؤوا بالقتال حتى يأتيهم أمره، وقال: «إذا أكتبوكم - أي اقتربوا منكم - فارموهم، واستبقوا نبلكم، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم».

ثم رجع إلى العريش، ومعه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فابتهل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ودعاه، وناشده حتى قال: «اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةُ الْيَوْمَ لَا تَعْبُدُ أَبَدًا، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تَعْبُدْ بَعْدَ الْيَوْمِ أَبَدًا». وبالع في التضرع والابتهاال حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فرده عليه الصديق وقال: حسبك يا رسول الله، ألححت على ربك.

أما المشركون فاستفتح منهم أبو جهل فقال: اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرفه فاحنه الغداة، اللهم أينما كان أحب إليك وأرضى عندك فانصره اليوم.

المبارزة والقتال:

ثم تقدم ثلاثة من خيرة فرسان المشركين: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، وبارزوا المسلمين، فخرج ثلاثة من شباب الأنصار، فقال المشركون: نريد بني عمنا، فخرج عبيدة بن الحارث، وحمزة، وعلي، فقتل حمزة شيبة وقتل عليّ الوليد واختلفت ضربتان بين عبيدة وعتبة وأُتخن كل واحد منهما الآخر، ثم كر علي وحمزة على عتبة فقتلاه، واحتملا عبيدة وقد قطعت رجله، فمات بعد أربعة أو خمسة أيام بالصفراء راجعاً إلى المدينة.

واستاء المشركون بنتيجة المبارزة، واستشاطوا غضباً، فهجموا على صفوف المسلمين بعنف، وشدوا عليهم شدة رجل واحد، والمسلمون ثابتون في أماكنهم يدافعون عن أنفسهم، ويقولون: أحد. أحد.

وأغفى رسول الله ﷺ إغفاءة، ثم رفع رأسه وقال: «أبشر أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده، على ثنياه النقع»، أي على أطرافه الغبار، وكان الله قد أمد المسلمين يومئذ بألف من الملائكة مردفين.

ثم تقدم رسول الله ﷺ يشب في الدرع ويتلو قوله تعالى: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، وأخذ حفنة من الحصباء، ورمى بها وجوه المشركين، وهو يقول: شأهت الوجوه، فما من مشرك إلا وأصاب عينيه ومنخره من تلك الحفنة،

وعن ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧].

ثم أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالهجوم على المشركين، وقال: شدوا، وحرضهم على القتال، فشد المسلمون وهم على نشاطهم، وقد زادهم تحمُّسًا وجود رسول الله ﷺ فيما بين أظهرهم يقاتل قدامهم، فأخذوا يقلبون الصفوف، ويقطعون الأعناق، ونصرهم الملائكة فكانوا يضربون فوق أعناق المشركين، ويضربون منهم كل بنان، فكان يندر رأس الرجل لا يدري من ضربه، وتندر يد الرجل لا يدري من قطعها، حتى نزلت الهزيمة بالمشركين فلاذوا بالفرار، وأخذ المسلمون يطاردونهم فيقتلون فريقًا ويأسرون فريقًا.

وكان إبليس قد حضر في صورة سراقه بن مالك بن جعشم تأييدًا للمشركين، وتحريضًا لهم على قتال المسلمين، فلما رأى الملائكة وما يفعلون نكص على عقبه وفر إلى البحر الأحمر وألقى نفسه فيه.

مقتل أبي جهل؛

وكان أبو جهل في عصابة جعلت سيوفها ورماحها حوله مثل السياج، وكان في صفوف المسلمين حول عبد الرحمن بن عوف شابان من الأنصار لم يأمن عبد الرحمن مكانهما، إذ قال له أحدهما سرًا من صاحبه: يا عم، أرني أبا جهل قال: وما تصنع به؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ فوالذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، وقال الآخر مثل ذلك، فلما تصدعت الصفوف رآه عبد الرحمن يتجول فأراهما فابتدراه بالسيف حتى

قتلاه، ضرب أحدهما ساقه فطاحت رجله كما تطير النوى حين تدق، وأثخنه الآخر حتى تركه وبه رمق، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فقال: أيكما قتله، فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، قال: هل مسحتما سيفكما؟، فقالا: لا، فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين وقال: كلاكما قتله، وهما معاذ ومعوذ ابنا عفراء، وقد استشهد معوذ في نفس الغزوة، وبقي معاذ إلى زمن عثمان، وأعطاه رسول الله ﷺ سلب أبي جهل.

وبعد انتهاء المعركة خرج الناس في طلبه، فوجده عبد الله بن مسعود وبه رمق، فوضع رجله على عنقه وأخذ لحيته ليحتز رأسه وقال: هل أخزأك الله يا عدو الله؟ قال: وبماذا أخزاني؟ هل فوق رجل قتلتموه؟ وقال: فلو غير أكار قتلي، ثم قال: أخبرني لمن الدائرة اليوم؟ قال: لله ولرسوله؟ قال أبو جهل: لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويحي الغنم! وقطع عبد الله بن مسعود رأسه ثم جاء به إلى رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «الله أكبر، والحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده»، وقال: «هذا فرعون هذه الأمة»^(١).

يوم الفرقان؛

كانت هذه المعركة معركة بين الكفر والإيمان، قاتل فيها الرجل عمه وأباه، وابنه وأخاه، وخاله وأدناه، قتل فيها عمر بن الخطاب رضى الله عنه خاله العاص بن هشام، وواجه فيها أبو بكر ابنه عبد الرحمن، وأسر فيها المسلمون العباس، وهو

(١) مشكاة المصابيح (٢/ ٢٥٣).

عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهكذا انقطعت فيها صلة القرابة، وأعلى الله فيها كلمة الإيمان يوم بدر، اليوم السابع عشر من شهر رمضان.

قتلى الفريقين؛

قتل في هذه المعركة أربعة عشر رجلاً من المسلمين، ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار، ودفنوا في ساحة بدر ومقابرهم لا تزال معروفة.

أما المشركون فقتل منهم سبعون، وأسر سبعون، ومعظمهم كانوا من الصناديد، وقد سحبت جثث أربع وعشرين من صناديدهم وقذفت في قليب - بئر - خبيث مخبث في بدر، وأقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بدر ثلاثة أيام، فلما استعد للرجوع جاء القلب وقام على شفته، وناداهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان ابن فلان! ويا فلان ابن فلان! أيسركم أنكم أطعم الله ورسوله؟ فإننا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟

فقال له عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها، قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون^(١) [روضة الأنوار].

غزوة بني قينقاع

هذا، وإذا كان للشخص عَدُوًّا فإنْتَصِر على أحدهما حَرَك ذلك شجون الآخر، وهاج فؤاده، فتبدو بغضاؤه غير مكترث بعاقبة عدائه، وهذا ما حصل من يهود بني قينقاع عند تمام الظفر في بدر، فإنهم نبذوا ما عاهدوا المسلمين

(١) مشكاة المصابيح (٢/٥٤٣).

عليه، وأظهروا مكنون ضمائرهم، فبدت البغضاء من أفواههم، وانتهكوا حرمة سيدة من نساء الأنصار، وهذا مما يدعو المسلمين للتحرز منهم وعدم ائتمانهم في المستقبل إذا شبت الحرب في المدينة بين المسلمين وغيرهم، فأنزل الله: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَبِيْذُ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، فدعا صلى الله عليه وسلم رؤساءهم وحذرهم عاقبة البغي ونكث العهد، فقالوا: يا محمد، لا يغررك ما لقيت من قومك فإنهم لا علم لهم بالحرب ولو لقينا لتعلمن أننا نحن الناس، كانوا أشجع يهود.

فأنزل الله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسَ الْأَمْهَادُ ۝١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ الْقَتْلِ فِتْنَةٌ تَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأَىٰ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ [آل عمران: ١٢-١٣]، وعند ذلك تبرأ من حلفهم عبادة بن الصامت، أحد رؤساء الخزرج، وتشبث بالحلف عبد الله بن أبي بن سلول وقال: إني رجل أخشى الدوائر، فأنزل الله تعليماً للمسلمين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥١﴾ فَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِمِينَ ﴿٥٢﴾ [المائدة: ٥١-٥٢]، وعندما تظاهر يهود قينقاع بالعداوة وتحصنوا بحصونهم، سار إليهم صلى الله عليه وسلم في نصف شوال من هذه السنة، يحمل لواءه عمه حمزة، وخلف على المدينة أبا لبابة الأنصاري، فحاصرهم خمس عشرة ليلة.

جلاء بني قينقاع

ولما رأوا من أنفسهم العجز عن مقاومة المسلمين، وأدركهم الرعب، سألوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يخلي سبيلهم، فيخرجوا من المدينة ولهم النساء والذرية، وللمسلمين الأموال، فقبل ذلك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووكل بجلائهم عبادة بن الصامت وأمهلهم ثلاث ليالٍ، فذهبوا إلى أذرعات، ولم يحل عليهم الحول حتى هلكوا، وخمس صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أموالهم، وأعطى سهم ذوي القربى لبني هاشم ولبني المطلب دون بني أخويهما عبد شمس ونوفل، ولما سُئل عن ذلك قال: إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد في الجاهلية والإسلام هكذا، وشبك بين أصابعه [المصدر السابق].

غزو أحد

بينما كانت قريش تستعد للانتقام من المسلمين بما أصيبت به في غزوة بدر إذا بهم يتلقون ضربة أخرى، فازدادوا بها غضباً على غضب، فأسرعوا في الاستعداد وفتحوا باب التطوع، وحشدوا الأحابيش وخصصوا الشعراء للإغراء والتحريض، حتى تجهز جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، في ثلاثة آلاف بعير ومائتي فرس، وسبعمائة درع، ومعه عدد من النسوة للتحريض وبث البسالة والحماس، وكان قائده العام أبا سفيان، وحامل لوائه أبطال بني عبد الدار.

تحرك هذا الجيش في غيظه وغضبه حتى بلغ إلى ضواحي المدينة، وألقى رحله في ميدان فسيح على شفير وادي قناة قريباً من جبل عنين وأحد، وذلك يوم الجمعة السادس من شهر شوال سنة ٣هـ، ونقل الخبر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قبل نزول الجيش بنحو أسبوع، فشكل دوريات عسكرية تحسباً للطوارئ، وحفظاً للمدينة، فلما وصل الجيش استشار المسلمين حول خطة الدفاع، وكان رأيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتحصن المسلمون بالمدينة، فيقاتل الرجال على أفواه الأزقة، والنساء من فوق البيوت، ووافقه رأس المنافقين عبد الله بن أُبَيٍّ، وكأنه قصد الجلوس في البيت دون أن يتهم بالتخلف، ولكن تحمس الشباب، وألحوا على المجالدة بالسيوف في مكان مكشوف، فقبل رأيهم، وقسم الجيش إلى ثلاث كتائب، كتيبة للمهاجرين، وحمل لواءها مصعب بن عمير، وأخرى للأوس، وحمل لواءها أسيد بن حضير، وثالثة للخزرج، وحمل لواءها الحباب بن المنذر.

واتجه بعد صلاة العصر إلى جبل أحد، فلما بلغ موضع الشيخين استعرض الجيش، فرد الصغار، وأجاز رافع بن خديج على صغره، لأنه كان ماهراً في رمي السهام، فقال سمرة بن جندب: أنا أقوى منه، أنا أصرعه، فأمرهما بالمصارعة، فصرع سمرة رافعاً فأجازه أيضاً.

وفي موضع الشيخين صلى المغرب والعشاء، ثم بات هناك، وعين خمسين رجلاً لحراسة المعسكر، فلما كان في آخر الليل ارتحل قبل الفجر فصلاها بالشوط، وهناك تمرد عبد الله بن أُبَيٍّ فرجع مع ثلاثمائة من أصحابه، وسرى لأجل ذلك الضعف والاضطراب في بني سلمة وبني حارثة، وكادتا ترجعان، ولكن ثبتهما الله، وكان أولاً مجموع عدد المسلمين ألفاً فبقي سبعمائة.

وتقدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نحو جبل أحد من طريق قصير يترك العدو في جانب الغرب، حتى نزل بالشعب عند منفذ الوادي، جاعلاً ظهره إلى هضاب

أحد، وبذلك صار العدو حائلاً بين المسلمين وبين المدينة.

وهناك عبأ الجيش، وعين خمسين رجلاً من الرماة على جبل عينين - وهو الذي يعرف بجبل الرماة - بقيادة عبد الله بن جبير الأنصاري، وأمرهم أن يدافعوا الخيل، ويحموا ظهور المسلمين، وأكد لهم أن لا يتركوا مكانهم حتى يأتي أمره، سواء انتصر المسلمون أو انهزموا.

وعبأ المشركون جيشهم، وتقدموا إلى ساحة القتال، تحرضهم نسوتهم، وهن يتجولن في الصفوف، ويضربن بالدفوف ويثرن الأبطال، وينشدن الأبيات: إن تقبلوا نعانق ونفرش التمارك أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

ويذكرن أصحاب اللواء بواجبهم قائلات:

ويها بني عبد الدار ويها حماة الأدبار ضرباً بكل بتار

المبارزة والقتال:

وتقارب الجيشان فطلع طلحة بن أبي طلحة العبدري حامل لواء المشركين وأشجع فرسان قريش، ودعا إلى المبارزة وهو على بعير، فتقدم إليه الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ووثب وثبة الليث حتى صار معه على جملة، ثم أخذه واقتحم به الأرض، وذبحه بسيفه، فكبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكبر المسلمون.

ثم انفجر القتال في كل نقطة وحاول خالد بن الوليد - وهو على فرسان المشركين ثلاث مرات ليلج إلى ظهور المسلمين، ولكن رشقه الرماة بسهامهم حتى ردوه.

وركز المسلمون هجومهم على حملة لواء المشركين حتى قتلوهم عن آخرهم وكانوا أحد عشر مقاتلاً، فبقى اللواء ساقطاً، وشدّد المسلمون هجومهم على بقية النقاط حتى هدوا الصفوف وحسوا المشركين حساً، وأبلى أبو دجانة وحمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في ذلك بلاءً حسناً.

وأثناء هذا التقدم والانتصار قتل حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قتله وحشي بن حرب، وكان عبداً حبشياً ماهراً في قذف الحربة، وقد وعده مولاه جبير بن مطعم بالعقق إذا قتل حمزة، لأن حمزة هو الذي قتل عمه طعيمة بن عدي في بدر، فاخْتَبَأَ له ثم صوب إليه الحربة، وقذفها، وهو على غرة، فوقع في أحشائه، وخرجت من بين رجله فسقط ولم يستطع النهوض حتى قضى نحبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ووقع الهزيمة بالمشركين حتى لاذوا بالفرار، وفرت النسوة المحرضات، وتبعهم المسلمون يضعون فيهم السلاح، ويأخذون الغنائم، وحينئذ أخطأ الرماة، فنزل منهم أربعون رجلاً ليصيبوا من الغنيمة، على رغم ما كان لهم من الأمر المؤكد بالبقاء في أماكنهم. وانتَهَزَ خالد بن الوليد هذه الفرصة، فانقض على العشرة الباقية بجبل الرماة حتى قتلهم، واستدار عن هذا الجبل حتى وصل إلى ظهور المسلمين وبدأ بتطويقهم، وصاح فرسانه صيحة عرفها المشركون فانقلبوا، ورفعت لواءهم إحدى نساءهم فالتفوا حوله وثبتوا، وبذلك وقع المسلمون بين شقي الرحى^(١).

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٩٦-٢٧).

هجوم المشركين على رسول الله ﷺ وإشاعة مقتله

وكان رسول الله ﷺ في مؤخرة المسلمين، ومعه سبعة من الأنصار واثنان من المهاجرين، فلما رأى فرسان خالد تطلع من وراء الجبل نادى أصحابه بأعلى صوت: إِيَّيَّ عِبَادَ اللَّهِ! وسمع صوته المشركون - ولعلمهم كانوا أقرب إليه من المسلمين فأسرعت مجموعة منهم نحو الصوت، وهاجمت رسول الله ﷺ هجوماً شديداً، وحاولت القضاء عليه قبل أن يصل إليه المسلمون، فقال ﷺ: «مَنْ يُرِدْهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ، أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ» [صحيح مسلم]، فتقدم رجل من الأنصار فدفعهم، وقتلهم حتى قتل، ثم رهقوا فأعاد قوله، فتقدم رجل آخر فدفعهم وقتلهم حتى قتل، ثم الثالث، ثم الرابع وهكذا حتى قتل السبعة.

ولما سقط السابع لم يبق حول رسول الله ﷺ إلا القرشيان طلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص، فركز المشركون حملتهم على رسول الله ﷺ حتى أصابته حجارة وقع لأجلها على شقه، وأصابت رباعيته اليمنى السفلى وجرحت شفته السفلى وهمشت البيضة على رأسه، فشجت جبهته ورأسه، وضرب بالسيف على وجنته فدخلت فيها حلقتان من حلق المغفر، وضرب أيضاً بالسيف على عاتقه ضربة عنيفة اشتكى لأجلها أكثر من شهر، وكان قد لبس درعين فلم يتهتكاً^(١). وقع كل هذا على رغم دفاع القرشيين الدفاع المستميت، فقد رمى سعد بن أبي وقاص حتى نثر له رسول الله ﷺ كنانته

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/١٨).

وقال: ارم فداك أبي وأمي، وقاتل طلحة بن عبيد الله وحده قتال مجموع من سبق، حتى أصابه خمسة وثلاثون أو تسعة وثلاثون جرحاً، ووقى بيده النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأصيبت أصابعه حتى شلت، ولما أصيب أصابعه قال: حس. فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو قلت: بسم الله، لرفعتك الملائكة والناس ينظرون.

وخلال هذه الساعة الحرجة نزل جبريل وميكائيل فقاتلا عنه أشد القتال، وفاء إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عدد من المسلمين فدافعوا عنه أشد الدفاع، وكان أولهم أبا بكر الصديق، ومعه أبو عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما وتقدم أبو بكر لينزع حلقة المغفر عن وجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فألح عليه أبو عبيدة حتى نزعها هو، فسقطت إحدى ثنيتيه، ثم نزع الحلقة الأخرى فسقطت الثنية الأخرى، ثم أقبلوا على طلحة بن عبيد الله فعالجاه وهو جريح.

وأثناء ذلك وصل إلى رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو دجانة ومصعب بن عمير وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وغيرهم، وتضاعف عدد المشركين أيضاً، واشتدت هجماتهم، وقام المسلمون ببطولات نادرة، فمنهم من يرمى، ومنهم من يدافع، ومنهم من يقاتل، ومنهم من يقي السهام على جسده.

وكان اللواء بيد مصعب بن عمير، فضربوا على يده اليمنى حتى قطعت، فأخذه بيده اليسرى، فضربوا عليها حتى قطعت، فبرك عليه ب صدره وعنقه حتى قتل، وكان الذي قتله هو عبد الله بن قمئة، فلما قتله ظن أنه قتل رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن مصعباً كان يشبهه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فانصرف ابن قمئة وصاح: إن محمداً قد قتل،

وشاع الخبر بسرعة، وبإشاعته تخفف هجوم المشركين، إذ ظنوا أنهم أصابوا الهدف، وبلغوا ما أرادوا^(١).

موقف عامة المسلمين بعد التطويق

ولما رأى المسلمون بداية عملية التطويق تشتتوا وارتبكوا، ولم يصلوا إلى موقف موحد، فمنهم من فر إلى الجنوب حتى بلغ المدينة المنورة، ومنهم من فر إلى شعب أحد ولاذ بالمعسكر، ومنهم من قصد رسول الله ﷺ وأسرع إليه، فدافع عنه كما تقدم، وبقي معظم المسلمين في دائرة التطويق، ثابتين في أماكنهم، يدفعون المطوقين ويقاتلونهم، وحيث لم يكن بينهم من يقودهم بنظام فقد حصل في صفوفهم خبط وإرباك؛ رجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم، حتى قتل اليمان والد حذيفة بأيدي المسلمين أنفسهم، فلما سمعوا خبر مقتل النبي ﷺ طار صواب طائفة منهم، وخارت عزائمهم، واستكانوا، حتى تركوا القتال، وتشجع آخرون وقالوا: موتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ.

وبينما هم كذلك إذ رأى كعب بن مالك رسول الله ﷺ وهو يشق الطريق إليهم، فعرفه بعينه، إذ كان وجهه تحت المغفر والبيضة، فنادى كعب بصوت عال: يا معشر المسلمين!! أبشروا، هذا رسول الله ﷺ فبدأ المسلمون يرجعون إليه، حتى تجمع حوله ثلاثون رجلاً من أصحابه، فشق بهم الطريق بين المشركين، ونجح في إنقاذ جيشه المطوق، وسحبه إلى شعب

(١) زاد المعاد (٢/٩٦، ٩٣).

الجبل، وقد حاول المشركون عرقلة هذا الانسحاب، ولكنهم فشلوا تمامًا، وقتل منهم اثنان أثناء هذه المحاولة.

في الشعب

وبعدما خرج المسلمون من دائرة التطويق، ونجحوا في التمكن من الشعب حصل بينهم وبين المشركين بعض المناوشات الخفيفة الفردية، ولم يجترأ المشركون على التقدم والمواجهة العامة، وإنما بقوا في الساحة قليلًا، مثلوا خلاله بالقتلى فقطعوا آذانهم وأنوفهم وفروجهم، وبقروا بطونهم، واتخذوا من الآذان والأنوف قلائد وخلاخيل.

وجاء أبيُّ بن خلف متغطرًا إلى الشعب يزعم أنه يقتل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحربة في ترقوته، في فرجه بين الدرع والبيضة، فتدحرج عن فرسه مرارًا، ورجع إلى قريش وهو يخور خوار الثور، فلما بلغ سرف - قريبًا من مكة - مات لأجله، ثم جاء رجال من المشركين يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليد، وعلوا في بعض جوانب الجبل، وتفيد بعض الروايات أن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قتل ثلاثة منهم.

وبلغ عدد قتلى المشركين اثنين وعشرين وقيل: سبعة وثلاثين، أما المسلمون فقد قتل منهم سبعون: ١٤ من الخزرج، و٢٤ من الأوس، و٤ من المهاجرين، وواحد من اليهود، وقيل غير ذلك، وبعد المحاولة الأخيرة الفاشلة من أبي سفيان وخالد بن الوليد أخذ المشركون يستعدون للعودة إلى مكة.

أما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه لما تمكن من الشعب واطمأن فيه، جاءه علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بماء من المهراس - وهو ماء بأحد - ليشرب منه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوجد له ريحاً فلم يشرب منه، بل غسل به الوجه، وصبه على الرأس، فأخذ الدم ينزف من الجرح، ولا ينقطع، فأحرقت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قطعة من حصير، وألصقتها، فاستمسك الدم، وجاء محمد بن مسلمة بماء سائغ فشرب منه، ودعا له بخير، وصلى الظهر قائماً، وصلى المسلمون معه قعوداً.

وجاءت نسوة من المهاجرين والأنصار، فيهن عائشة، وأم أيمن، وأم سليم، وأم سليط، فكن يملأن القرب بالماء، ويسقين الجرحى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أجمعين.

حوار وقرار

ولما استعد المشركون للرجوع تماماً أشرف أبو سفيان على الجبل، ونادى: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي نهاهم عن الإجابة، فقال أبو سفيان: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فلم يملك عمر نفسه أن قال: يا عدو الله! إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقي الله ما يسوؤك.

فقال أبو سفيان: اعل هبل، فعلمهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجواب، فأجابوه: الله أعلى وأجل.

ثم قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم.

فعلمهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجواب فأجابوه: الله مولانا ولا مولى لكم.

ثم قال أبو سفيان: أنعمت فعال، يوم بيوم بدر، والحرب سجال.

فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار.

قال أبو سفيان: إنكم لتزعمون ذلك، لقد خبنا إذن وخسرنا.

ثم دعاه أبو سفيان وقال: أنشدك الله يا عمر! أقتلنا محمداً؟

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا، وإنه ليستمع كلامك الآن.

قال: أنت أصدق عندي من ابن قمئة، وأبر.

ثم نادى أبو سفيان: إن موعدكم بدر العام القابل.

فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحد أصحابه أن يقول: نعم هو بيننا وبينك موعد.

رجوع المشركين وقيام المسلمين إلى جيشه، وأخذ الجيش في الارتحال، وقد ركب بالإبل وجعل الخيل بالجنب، وكان هذا دليل قصدهم لمكة، وكان من فضل الله على المسلمين، إذ لم يكن بين المشركين وبين المدينة من يمنعهم عن الدخول فيها، ولكن صرفهم الله الذي يحول بين المرء وقلبه.

فنزل المسلمون إلى ساحة القتال يتفقدون الجرحى والقتلى، وقد نقل بعضهم بعض الشهداء إلى المدينة، فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بردهم إلى مضاجعهم، ودفنهم في ثيابهم، بغير غسل ولا صلاة، وقد دفن الاثنين والثلاثة في قبر واحد، وربما جمع بين الرجلين في ثوب واحد، وجعل بينهما الإذخر، وقدم في اللحد من كان أكثر حفظاً للقرآن، وقال: «أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»

[رواه البخاري]، ووجدوا نعش حنظلة بن أبي عامر في ناحية فوق الأرض، يقطر منه الماء، فقال النبي ﷺ: «إن الملائكة تغسله»، وكان من قصته أنه كان حديث عهد بعرس، وكان معها إذ سمع المنادي ينادي للحرب، وخرج إلى ساحة القتال، وقاتل حتى قتل، وهو جنب، فغسلته الملائكة، فسمى غسيل الملائكة.

وكفن حمزة في برد إن غطى رأسه بدت رجلاه، وإن غطى رجلاه بدا رأسه، فجعلوا على رجله الإذخر، وكذلك مصعب بن عمير^(١).

[نور اليقين في سيرة سيد المرسلين]

غزوة الخندق أو الأحزاب

يشتمل على ملخص غزوة الخندق التي ابتلى الله فيها عباده المؤمنين وزلزلهم، وثبت الإيمان في قلوب أوليائه وأظهر ما كان يُبطنه أهل النفاق، وفضحهم وقرعهم. ثم أنزل نصره، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، وأعز جنده، ورد الكفرة بغيظهم، ووقى المؤمنين شر كيدهم، وذلك بفضل منه، وحرّم عليهم شرعاً وقدراً أن يغزوا المؤمنين بعدها، بل جعلهم المغلوبين وجعل حزبه هم الغالبين، والحمد لله رب العالمين.

وكانت في سنة خمسٍ في شوالها على الصحيح من قولي أهل المغازي والسير، وكان سبب غزوة الخندق: أن نفرًا من يهود بني النضير الذين أجلاهم ﷺ من المدينة إلى خيبر كما قدمنا وهم أشرافهم: كسلام بن أبي الحقيق،

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٧٣، ٨٠-٨٣)، وزاد المعاد (٢/ ٧٩).

وسلام بن مشكم، وكنانة بن الربيع وغيرهم، خرجوا إلى قريش بمكة فألّبوهم على حرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووعدوهم من أنفسهم النصر، فأجابوهم، ثم خرجوا إلى غطفان فدعّوهم فأجابوهم أيضًا، وخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب، وعلى غطفان عيينة بن حصن، كلهم في نحو عشرة آلاف رجل، فلما سمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمسيرهم إليه أمر المسلمين بحفر خندق يحول بين المشركين وبين المدينة، وكان ذلك بإشارة سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فعمل المسلمون فيه مبادرين هجوم الكفار عليهم، وكانت في حفره آيات مُفَصَّلَةٌ يطول شرحها، وأعلام نبوة قد تواتر خبرها، فلما كَمُلَ قدم المشركون، فنزلوا حول المدينة كما قال تعالى: ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ [الأحزاب: ١٠].

وخرج رسول الله فتحصن بالخندق وهو في ثلاثة آلاف - على الصحيح - من أهل المدينة، فجعلوا ظهورهم إلى سلع^(١). وأمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنساء والذراري، فجعلوا في آطام المدينة، واستخلف عليها ابن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وانطلق حُيَيُّ بن أخطب النَّضْرِي إلى بني قريظة، فاجتمع بكعب بن أسد رئيسهم، فلم يزل به حتى نقض العهد الذي كان بينه وبين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووافق كعب المشركين على حرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسُرُّوا بذلك.

وبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السعدين: ابن معاذ، وابن عباد، وخوات بن جبير، وعبد الله بن رواحة، ليعرفوا له هل نقض بنو قريظة العهد أم لا، فلما قربوا منهم وجدوهم مُجَاهِرِينَ بالعداوة والغدر، فتسأَّبوا ونال اليهود عليهم لعائن الله

(١) سَلْع: جبل يقع في الشمال الغربي للمدينة المنورة.

من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسبَّهم سعدُ بن معاذ، وانصرف هو عنهم. وقد أمرهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إن كانوا نقضوا أن لا يفتُّوا ذلك في أعضاء المسلمين، لئلا يُورثَ وهناً، وأن يلحنوا إليه لحنًا - أي لغزًا - فلما قدموا عليه، قال: ما وراءكم؟ قالوا: عضل والقارة، يعنون غدرهم بأصحاب الرجيع، فعظم ذلك على المسلمين، واشتد الأمر، وعظم الخطر، وكانوا كما قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١١].

ونجم النفاق وكثر، واستأذن بعض بني حارثة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الذهاب إلى المدينة لأجل بيوتهم، قالوا: إنها عورة، وليس بينها وبين العدو حائل، وهم بنو سلمة بالفشل، ثم ثبتَّ الله كلتا الطائفتين.

وثبت المشركون محاصرين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شهرًا، ولم يكن بينهم قتال لأجل ما حال الله به من الخندق بينه وبينهم، إلا أن فوارس من قريش؛ منهم عمرو بن عبد ودّ العامري وجماعة معه، أقبلوا نحو الخندق، فلما وقفوا عليه قالوا: إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تعرفها، ثم يَمَمُوا مكانًا ضيقًا من الخندق فاقتحموه وجاوزوه، وجالت بهم خيلهم في السبخة بين الخندق وسلع ودعوا للبراز، فانتدب لعمر بن عبد ودّ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فبارزه فقتله الله على يديه، وكان عمرو لا يُجَارَى في الجاهلية شجاعة، وكان شيخًا قد جاوز المائة يومئذ، وأما الباقيون فانطلقوا راجعين إلى قومهم من حيثُ جاءوا، وكان هذا أول ما فتح الله به من خذلانهم، وكان شعار المسلمين تلك الغزوة «حم لا ينصرون».

ولما طال هذا الحال على المسلمين أراد رسول الله ﷺ أن يُصالح عيينة بن حصن^(١)، والحارث بن عوف رئيسي غطفان، على ثلث ثمار المدينة ويتصرفا بقومهما، وجرت المفاوضة على ذلك ولم يتم الأمر حتى استشار ﷺ السعدين في ذلك فقالا: يا رسول الله، إن كان الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعة، وإن كان شيئاً تصنعه لنا، فلقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا بالسيف، فقال ﷺ: «إنما هو شيء أصنعه لكم»، وصوب رأيهما في ذلك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ولم يفعل من ذلك شيئاً^(٢).

ثم إن الله سبحانه وله الحمد صنع أمراً من عنده خذَل به بينهم وفَلَّ جموعهم، وذلك أن نُعَيْم بن مسعود بن عامر الغطفاني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جاء إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، إني قد أسلمت، فمرني بما شئت، فقال ﷺ: «إنما أنت رجلٌ واحدٌ فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة»^(٣). فذهب من حينه ذلك إلى بني قُريظة وكان عشيراً لهم في الجاهلية فدخل عليهم، وهم لا يعلمون بإسلامه، فقال: يا بني قُريظة إنكم قد حاربتم محمداً، وإن قريشاً إن أصابوا فرصة انتهزوها، وإلا شمروا إلى بلادهم، وتركوكم ومحمداً فانتقم

(١) في المخطوط: حصين.

(٢) رواه الطبري في (تاريخه) (٩٤ / ٢)، والبيهقي في (الدلائل) (٤٣١ / ٣).

(٣) البخاري [٣٠٣٠]، ومسلم [١٧٣٩].

منكم، قالوا: فما العمل يا نعيم؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يُعطوكم رهائن، قالوا: لقد أشرت بالرأي.

ثم نهض إلى قريش فقال لأبي سفيان ولهم: تعلمون ودي ونصحي لكم؟ قالوا: نعم، قال: إن يهود ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ثم يمالئونهم عليكم، ثم ذهب إلى قومه غطفان فقال لهم مثل ذلك.

فلما كان ليلة السبت في شوال بعثوا إلى يهود: إننا لسنا بأرض مقام فانهضوا بنا غداً نناجز هذا الرجل، فأرسل إليهم اليهود: إن اليوم يوم السبت، ومع هذا فإننا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهنًا، فلما جاءهم الرسل بذلك قالت قريش: صدقنا والله نعيم بن مسعود، وبعثوا إلى يهود: إننا والله لا نرسل لكم أحدًا فاخرجوا معنا، فقالت قريظة: صدق والله نعيم، وأبوا أن يقاتلوا معهم.

وأرسل الله عز وجل على قريش ومن معهم الخور والريح تُزلزلهم، فجعلوا لا يقر لهم قرار، ولا تثبت لهم خيمة ولا طنب، ولا قدر ولا شيء، فلما رأوا ذلك ترحلوا من ليلتهم تلك، وأرسل صلى الله عليه وسلم حذيفة بن اليمان يخبر له خبرهم، فوجدهم كما وصفنا، ورأى أبا سفيان يصلى ظهره بنار، ولو شاء حذيفة لقتله، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره برحيلهم^(١).

فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غداً إلى المدينة وقد وضع الناس السلاح فجاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يغتسل في بيت أم سلمة،

(١) رواه مسلم [١٧٨٨]، وأحمد (٥/٢٩٣، ٣٩٣).

فقال: أوضعتم السلاح؟ أما نحن فلم نضع أسلحتنا، انهذه^(١) إلى هؤلاء، يعني بني قريظة^(٢) [الفصول في سيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للإمام ابن كثير بتحقيق سيد رجب].

غزوة الحديبية^(٣)

ولما كان ذو القعدة من السنة السادسة خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معتمرًا في ألف ونيف^(٤). قيل: وخمسماية، وقيل: وأربعمائة، وقيل: وثلاثمائة، وقيل: غير ذلك.

فلما علم المشركون بذلك جمعوا أحابيشهم وخرجوا من مكة صاديّين له عن الاعتماد هذا العام، وقَدَّمُوا على خيل لهم خالد بن الوليد إلى كُراع الغميم. وخالفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الطريق فانتهى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الحديبية، وتراسل هو والمشركون حتى جاء سهيل بن عمرو فصالحه على أن يرجع عنهم عامهم هذا، وأن يعتمر من العام المقبل، فأجابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ما سأل، لما جعل الله عَزَّوَجَلَّ في ذلك المصلحة والبركة، وكره ذلك جماعة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ منهم؛ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وراجع أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ذلك، ثم راجع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان جوابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما أجابه الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو أنه عبد الله ورسوله وليس يعصيه، وهو ناصره. وقد استقصى البخاري هذا الحديث في صحيحه^(٥).

(١) انهذه: معناه انهض.

(٢) رواه البخاري [٤١١٧]، ومسلم [١٧٧٠].

(٣) الحديبية: بئر على مسافة تسعة أميال من مكة من ناحية المدينة.

(٤) زيادة في المطبوع.

(٥) البخاري [٢٧٣٣].

فقاضاه سهيل بن عمرو: على أن يرجع عنهم عامه هذا، وأن يعتمر من العام المقبل على أن لا يدخل مكة إلا في جُلْبَان السلاح، وأن لا يقيم عندهم أكثر من ثلاثة أيام، وعلى أن يأمن الناس بينهم وبينه عشر سنين.

فكانت هذه الهدنة من أكبر الفتوحات للمسلمين كما قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعلى أنه من شاء دخل في عقد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن شاء دخل في عقد قريش، وعلى أنه لا يأتيه أحدٌ منهم وإن كان مسلماً إلا ردّه إليهم، وإن ذهب أحد من المسلمين إليهم لا يردونه إليه.

فأقر الله سبحانه ذلك كله إلا ما استثنى من المهاجرات المؤمنات من النساء: فإنه نهاهم عن ردهن إلى الكفار، وحرمن على الكفار^(١)، وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل ووقعها الصلح بعث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أهل مكة يُعلمهم أنه لم يجيء لقتال أحدٍ وإنما جاء مُعْتَمِراً، فكان من سيادة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه عرض عليه المشركون الطواف بالبيت، فأبى عليهم وقال: لا أطوفُ بها قبل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولم يرجع عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتى بلغه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قد قُتل عثمان، فَحَمِي لذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم دعا أصحابه إلى البيعة على القتال، فبايعوه تحت شجرة هناك، وكانت سَمُرة، وكان عدة من بايعه هناك جملة من قدمنا أنه

(١) يشير إلى قول المولى تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْسِكُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [المتحنة: ١٠].

خرج معه إلى الحديبية إلا الجَدُّ بن قيس^(١)؛ فإنه كان قد استتر ببيعير له نفاقاً منه وخذلاًئاً، وإلا أبا سريحة حذيفة بن أسيد؛ فإنه شهد الحديبية، وقيل: إنه لم يبايع، وقيل: بل بايع.

وكان أول من بايع يومئذ أبو سنان^(٢)؛ وهب بن محصن؛ أخو عكاشة بن محصن، وقيل: ابنه سنان بن أبي سنان، وبايع سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومئذ ثلاث مرات بأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له بذلك، كما رواه مسلم عنه^(٣).

ووضع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إحدى يديه عن نفسه الكريمة ثم قال: وهذه عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكان ذلك أجَلَّ من شهوده تلك البيعة.

وأنزل الله عَزَّجَلَّ في ذلك: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ [الفتح: ١٨]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ النَّارَ»^(٤).

فهذه بيعة الرضوان.

ولما فرغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مقاضاة المشركين كما قدمنا، شرع في التحلل من عمرته، وأمر الناس بذلك، فشَقَّ عليهم، وتوقفوا رجاء نسخه، فغضب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك، فدخل على أم سلمة، فقال لها ذلك، فقالت: اخرج أنت يا رسول الله فاذبح هديك واحلق رأسك، والناس يتبعونك يا رسول الله، فخرج

(١) رواه مسلم [١٨٥٦]، والترمذي (٣٢٩/٨).

(٢) ورواه البيهقي في (الدلائل) (١٣٧/٤).

(٣) مسلم [١٠٨٧] وسبق تخريجه في غزوة ذي قرد.

(٤) رواه مسلم [٣٤٩٦]، والنسائي في (الكبرى) [١١٥٠٨].

ففعل ذلك، فبادر الناس إلى موافقته^(١)، فحلقوا كلهم إلا عثمان بن عفان وأبا قتادة الحارث بن ربيعي، فإنهما قصّرا^(٢)، ذكره السهيلي في الروض الأنف.

وكاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً؛ لأنهم يرون المشركين قد ألزموهم بشروط، وأجابهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليها، وهذا من فرط شجاعتهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وحرصهم على نصر الإسلام، ولكن الله عَزَّجَلَّ أَعْلَمُ بحقائق الأمور ومصالحه منهم، ولهذا لما انصرف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راجعاً إلى المدينة أنزل الله عَزَّجَلَّ عليه سورة الفتح بكمالها في ذلك، وقال عبد الله بن مسعود^(٣): إنكم تعدون الفتح فتح مكة، وإنما كنّا نعدّه فتح الحديبية، وصدق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل هذه هي السبب في فتح مكة، كما سنذكره بعد إن شاء الله تعالى وعوّض من هذه خير سلفاً وتعجيلاً [المصدر السابق].

بعث مؤتة

ولما كان في جمادي الآخر من سنة ثمان بعث صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأمراء إلى مؤتة، وهي قرية من أرض الشام، ليأخذوا بثأر مَنْ قُتِلَ هناك من المسلمين. فأمر على الناس زيد بن حارثة مولاه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «إِنْ أُصِيبَ زَيْدٌ فَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَى النَّاسِ، فَإِنْ أُصِيبَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ عَلَى النَّاسِ» [رواه البخاري].

فخرجوا في نحو من ثلاثة آلاف، وخرج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معهم يُودِّعُهُمْ إلى بعض الطريق، فساروا حتى إذا كانوا بَمَعَانَ بلغهم أن هرقل ملك الروم قد خرج

(١) صحيح: وهو في حديث مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة السابق تخريجه في بداية الغزوة.

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٥١٦/٨) بسند ضعيف.

(٣) رواه البخاري [٤١٥٠]، وابن جرير الطبري في (تفسيره) (٧١/٢٦/١٣).

إليهم في مائة ألف ومعه مالك بن زافلة في مائة ألف أخرى من نصارى العرب من لحم وجذام وقبائل قضاة من بهراء وبلي وبلقين، فاشتور المسلمون هناك وقالوا: نكتب إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمرنا بأمره أو يُمدُّنا، فقال عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا قوم! والله إن الذي خرجتم تطلبون أما مكم؛ يعني الشهادة وإنكم ما تقاتلون الناس بعدد ولا قوة، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فهي إحدى الحُسَيْنَيْنِ: إما ظهورٌ، وإما شهادة. فوافقه القومُ، فنهضوا.

فلما كانوا بتخوم البلقاء لقوا جموع الروم فنزل المسلمون إلى جنب قرية مؤتة، والروم على قرية يقال لها مشارف، ثم التقوا فقاتلوا قتالًا عظيمًا.

وقُتل أمير المسلمين زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والراية في يده، فتناولها جعفر، ونزل عن فرس له شقراء فعقرها، وقاتل حتى قُطعت يده اليمنى، فأخذ الراية بيده الأخرى فُقُطعت أيضًا، فاحتضن الراية ثم قُتل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن ثلاث وثلاثين سنة على الصحيح، فأخذ الراية عبد الله بن رواحة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وتلَّوم بعض التلَّوم ثم صمَّ وقاتل حتى قُتل^(١)، فيقال: إن ثابت بن أقرم أخذ الراية وأراد المسلمون أن يؤمروه عليهم فأبى، فأخذ الراية خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فانحاز بالمسلمين، وتلطَّف حتى خلَص المسلمون من العدو، ففتح الله على يديه كما أخبر بذلك كله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه الذين بالمدينة يومئذ وهو قائم على المنبر،

(١) رواه ابن هشام (٢/ ٣٧٨، ٣٧٩)، ورواه أبو داود [٢٥٧٣٦].

فنعى إليهم الأمراء، واحدًا واحدًا وعيناه تذرفان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والحديث في (الصحيح)^(١)، وجاء الليل فكف الكفار عن القتال [المصدر السابق].

ومع كثرة هذا العدو وقلة عدد المسلمين بالنسبة إليهم (لم)^(٢) يُقتل من المسلمين خلقٌ كثيرٌ على ما ذكره أهل السير؛ فإنهم لم يذكروا فيما سَمَوْا إلا نحو العشرة وكرَّ المسلمون راجعين، ووقى الله شر الكفرة وله الحمد والمنة، إلا أن هذه الغزوة كانت إرهابًا^(٣) لما بعدها من غزو الروم، وإرهابًا لأعداء الله ورسوله.

غزوة فتح مكة

نذكر فيه ملخص غزوة فتح مكة التي أكرم الله عزَّجَلَّ بها رسوله، وأقرَّ عينه بها، وجعلها علمًا ظاهرًا على إعلاء كلمته، وإكمال دينه، والاعتناء بنصرته.

وذلك أنه لما دخلت خزاعة - كما قدمنا عام الحديبية - في عقد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودخلت بنو بكر في عقد قريش، وضربت المدة إلى عشر سنين، أمِنَ الناس بعضهم بعضًا، ومضى من المدة سنةٌ ومن الثانية نحو تسعة أشهر، فلم تكمل حتى غدا نوفل بن معاوية الديلي فيمن أطاعه من بني بكر بن عبد مناة فبيَّتوا خزاعة على ماء له يُقال له: الوثير، فاقتتلوا هناك بذُحُل^(٤) كانت لبني

(١) رواية البخاري [٤٢٦٢]، والنسائي (٢٦/٤) من حديث أنس.

(٢) في المخطوط: (لا).

(٣) في المخطوط: (إرهابًا).

(٤) الذحل: قال ابن الأثير: الوتر وطلب المكافأة بجناية جنيت عليه من قتل أو جرح ونحو ذلك، والذحل:

العداوة أيضًا (النهاية) (٢/١٥٥).

بكر على خزاعة من أيام الجاهلية، وأعانت قريش بني بكر على خزاعة بالسلاح، وساعدهم بعضهم بنفسه خفية، وفرت خزاعة إلى الحرم فأتبعهم بنو بكر إليه، فذكر قوم نوفل نوفلاً بالحرم، وقالوا: اتقِ إلهك، فقال: لا إله له اليوم، والله يا بني بكر إنكم لتسرقون في الحرم أفلا تدركون فيه ثأركم؟ قلت: قد أسلم نوفل هذا بعد ذلك، وعفا الله عنه، وحديثه مخرَّج في (الصحيحين)^(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقتلوا من خزاعة رجلاً يقال له مُنبّه، وتحصنت خزاعة في دور مكة، فدخلوا دارَ بُدَيْل بن ورقاء، ودار مولى لهم يقال له «رافع»، فانتقض عهد قريش بذلك. فخرج عمرو بن سالم الخزاعي وُبْدَيْل بن ورقاء الخزاعي (وقوم من خزاعة)^(٢).

حتى أتوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأعلموه بما كان من قريش واستنصروه عليهم، فأجابوهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبشّرهم بالنصر، وأنذرهم أن أبا سفيان سيقدم عليهم مؤكداً العقد وأنه سيرده بغير حاجة، فكان كذلك، وذلك أن قريشاً ندموا على ما كان منهم، فبعثوا أبا سفيان ليُشدَّ العقد الذي بينهم وبين محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويزيد في الأجل، فخرج، فلما كان بعُسفان لقي بُدَيْل بنَ ورقاء وهو راجع من المدينة، فكتمه بُدَيْل ما كان من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذهب أبو سفيان حتى قدم المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة زوج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فذهب ليقعد على فراش رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمنعته، وقالت: إنك رجل مشرك نجس.

(١) رواه البخاري [٣٦٠٢]، ومسلم [٢٨٨٦].

(٢) زيادة في المطبوع.

فقال: والله يا بُنَيَّة لقد أصابك بعدي شر، ثم جاء رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعرض عليه ما جاء له، فلم يجبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكلمة واحدة، ثم ذهب إلى أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فطلب منه أن يكلم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأبى عليه، ثم جاء إلى عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فأغظ له، وقال: أنا أفعل ذلك؟! والله لو لم أجد إلا (الذَرَّ)^(١) لقاتلتكم به. وجاء عليًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فلم يفعل، وطلب من فاطمة بنت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن تأمر ولدها الحسن أن يُجِيرَ بين الناس، فقالت: ما بلغ بُنَيَّ ذلك، وما يُجِير أحدٌ على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأشار عليه عليُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يقوم هو فيجير بين الناس، ففعل، ورجع إلى مكة فأعلمهم بما كان منه ومنهم، فقالوا: ما زاد -يعنون عليًّا- أن لَعَبَ بك^(٢).

ثم شرع رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجَهَازِ إلى مكة، وسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يعمِّي على قريشٍ الأخبارَ، فاستجاب له رَبُّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولذلك لما كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابًا إلى أهل مكة يُعَلِّمُهُمْ فيه بما هَمَّ به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من القدوم على قتالهم وبعث به مع امرأة، وقد تَأَوَّلَ في ذلك مصلحةً تعود عليه رَحْمَةُ اللهِ، وقبل ذلك منه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصدَّقه؛ لأنه كان من أهل بدر، وحين بعث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليًّا والزبير والمقداد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فرَدُّوا تلك المرأة من روضة خاخ، وأخذوا منها الكتاب، وكان هذا من إعلام الله عَزَّوَجَلَّ نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك ومن أعلام نبوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣).

(١) في المخطوط: الدم.

(٢) أخرجه ابن هشام (٢/ ٣٩٠ وما بعدها)، والطبري في (تاريخه) (٢/ ١٥٢).

(٣) رواه البخاري [٣٠٠٧]، ومسلم [٢٤٩٤].

وخرج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعشرٍ خَلَوْنَ من رمضان في عشرة آلاف مقاتل من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، وقد ألفت مزينة وكذا بنو سُليم على المشهور رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

واستخلف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المدينة أبا رُهم كلثوم بن حصين^(١).
ولقيه عمُّه العباس (بذي)^(٢) الحُلَيْفَة، وقيل: بالجحفة، فأسلم، ورجع معه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعث ثقله^(٣). إلى المدينة.

ولما انتهى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى نبيق العقاب جاءه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن أبي أمية أخو أم سلمة مسلمين، فطردهما، فشفعتُ فيهما أم سلمة، وأبلغته عنهما ما رققه عليهما، فقبلهما، فأسلما أتمَّ إسلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بعد ما كانا أشدَّ الناس عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وصام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى بلغ ماء يقال له: الكُدَيْد، بين عُسفان وأمْج من طريق مكة، فأفطر بعد العصر على راحلته ليراه الناس، وأرخص للناس في الفطر، ثم عزم عليهم في ذلك، فأنتهى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى نزل بمر الظَّهران، فبات به.

وأما قريش فعَمَّى الله عليها الخبر، إلا أنهم قد خافوا وتوهموا من ذلك، فلما كانت تلك الليلة خرج ابنُ حرب، وبُدَيْل بنُ ورقاء، وحكيم بن حزام يتحسَّسون

(١) حسن الإسناد من حديث ابن عباس السابق تخريجه.

(٢) في المخطوط: إلى ذي.

(٣) ثقله: قال ابن الأثير: الثَّقُل: متاع المسافر (النهاية) (١/٢١٧).

الخبر، فلما رأوا النيران أنكروها، فقال بُدَيْل: هي نار خُزاعة. فقال سفيان: خُزاعةٌ أقلُّ من ذلك.

وركب العباس بغلة رسول الله ﷺ ليلتذ، وخرج من الجيش لعله يلقى أحداً، فلما سمع أصواتهم عرفهم، فقال: أبا حنظلة! فعرفه أبو سفيان، فقال: أبو الفضل؟ قال: نعم، قال: ما وراءك؟ قال: ويحك .. هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصباح قريش! .. قال: فما الحيلة؟ قال: والله لئن ظفرت بك ليقُتلنك، ولكن اركب ورائي وأسلم، فركب وراءه وانطلق به، فمرَّ في الجيش؛ كلما أتى على قومٍ يقولون: هذا عمُّ رسول الله ﷺ على بغلة رسول الله ﷺ، حتى مرَّ بمنزل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلما رآه قال: عدو الله؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد.

ويَرْكُضُ العباسُ، وَيَشْتَدُّ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في جريه، وكان بطيئاً، فسبقه العباسُ، فأدخله على رسول الله ﷺ وجاء عمر في أثره، فاستأذن رسول الله ﷺ في ضرب عنقه، فأجاره العباسُ مبادرة، فتناول هو وعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فأمره ﷺ أن يأتيه به غداً، فلما أصبح أتى به رسول الله ﷺ، فعرض عليه الإسلام، فتلكأ قليلاً، ثم زجره العباسُ فأسلم، فقال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان يحبُّ الشرف، فقال ﷺ: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ» [رواه مسلم].

قال ابن حزم: هذا نصٌّ في أنها فُتحت صلحاً لا عنوة.

قلت: هذا أحد (أقوال العلماء) وهو الجديد من مذهب الشافعي، واستدل على ذلك أيضًا بأنها لم تخمس ولم تُقسم، والذين ذهبوا إلى أنها فتحت عنوة استدلو بأنهم قد قتلوا من قريش يومئذ عند الخندمة نحوًا من عشرين رجلًا، واستدلوا بهذا اللفظ أيضًا «فهو آمن»، والمسألة يطول تحريرها ها هنا، وقد تناظر الشيخان في هذه المسألة؛ أعني تاج الدين الفزازي، وأبا زكريا النووي ومسألة قسمة الغنائم.

والغرض أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصبح يومه ذلك سائرًا إلى مكة، وقد أمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العباس أن يوقف (أبا سفيان)^(١) عند خَطْمِ الجبل^(٢)، لينظر إلى جنود الإسلام إذا مرت عليه.

وقد جعل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على المقدمة، وخالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الميمنة، والزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الميسرة، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القلب، وكان أعطى الراية سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فبلغه أنه قال لأبي سفيان حين مر عليه: يا أبا سفيان، اليومُ يومُ الملحمة، اليوم تستحل الحرمة -والحرمة هي الكعبة- فلما شكأ أبو سفيان ذلك إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «بل هذا يوم تعظم فيه الكعبة». فأمر بأخذ الراية من سعد فتُعطى عليًا -وقيل: الزبير، وهو الصحيح- وأمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزبير أن يدخل من كدَاء من أعلى مكة، وأن

(١) ما بين القوسين زيادة في المطبوع وهو الصواب.

(٢) خطم الجبل: قال ابن الأثير: أصل الخطم في السباع: مقادير أنوفها وأفواهاها، فاستعارها للجبل يعني مقدم الجبل.

تُنْصَبُ رَأْيَتُهُ بِالْحَجُّونَ^(١)، وأمر خالدًا أن يدخل من كُدَى من أسفل مكة، وأمرهم بقتال من قاتلهم، وكان عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، قد جمعوا جمعًا بالخندمة، فمَرَّ بهم خالد بن الوليد فقاتلهم، فقتل من المسلمين ثلاثة؛ وهم: كُرْزُ بن جابر من بني مُحَارِب بن فهر، وحُبَيْش بن خالد بن ربيعة بن أصرم الخزاعي، وسلمة بن الميلاء الجُهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقُتِلَ من المشركين ثلاثة عشر رجلًا، وفرَّ بقيتهم.

ودخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة وهو راكبٌ على ناقته وعلى رأسه المِغْفَر^(٢)، ورأسه يكاد يمس مقدمة الرحل من تواضعه لربه عَزَّجَلَّ وقد آمَنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس إلا عبد العزيز بن خَطْل، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، ومقيس بن صبابه، والحويرث بن نُقَيْد، وقيتين لابن خطل، وهما فرتنا وصاحبتهما، وسارة مولاة لبني عبد المطلب، فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهدر دماءهم، وأمر بقتلهم حيث وُجِدوا^(٣)، حتى ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة، فقتل ابن خَطْل، وهو متعلقٌ بالأستار^(٤) ومقيس بن صبابه، والحويرث بن نُقَيْد، وإحدى القيتين، وآمن الباقيون.

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري [١٨٤٦]، ومسلم [١٣٥٧].

(٣) رواه النسائي (١٠٥/٧-١٠٦)، وأبو داود (٢٦٨٣، ٤٣٥٩)، وأبو يعلى [٧٥٧].

(٤) رواه البخاري [٤٢٨٦]، ومسلم [١٣٥٧] من حديث أنس.

ونزل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة واغتسل في بيت أم هانئ، وصلى ثماني ركعات^(١) يُسلم من كل ركعتين، ف قيل: إنها صلاة الضحى، وقيل: صلاة الفتح، وخرج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى البيت فطاف به طواف قدوم، ولم يسع، ولم يكن معتمراً^(٢).

ودعا بالمفتاح، فدخل البيت وأمر بإلقاء الصور ومحوها منه^(٣)، وأذن بلأل يومئذ على ظهر الكعبة، ثم ردَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المفتاح إلى عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، وأقرهم على السدانة.

وكان الفتح لعشر بقين من رمضان^(٤).

واستمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُفطراً بقية الشهر يُصلي ركعتين^(٥)، ويأمر أهل مكة أن يُتموا، كما رواه النسائي [٦] بإسناد حسن عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وخطب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الغد من يوم الفتح فبين حُرمة مكة وأنها لم تحل لأحد قبله ولا تحل لأحد بعده، وقد أحلت له ساعة من نهار، وهي غير ساعته تلك حرام^(٦).

وبعث صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السرايا إلى من حول مكة من أحياء العرب يدعونهم إلى الإسلام، وكان في جملة تلك البعوث بعث خالد إلى بني جذيمة الذين قتلهم خالد حين دعاهم إلى الإسلام، فقالوا: صَبَّأْنَا، ولم يُحْسِنُوا أن يقولوا: أسلمنا،

(١) رواه البخاري [١١٠٣]، ومسلم [٣٣٦]، وأبو داود [١٢٩١]، والترمذي [٤٧٤].

(٢) خرجه ابن هشام (٢/ ٤١١)، وأبو داود [١٨٦١]، وابن ماجه [٢٩٤٧].

(٣) رواه البخاري [٤٢٨٩]، ومسلم [١٣٢٩].

(٤) رواه ابن أبي شيبة (١/ ٢٥٣)، والبيهقي (دلائل) (٥/ ٧٩).

(٥) رواه البخاري.

(٦) رواه البخاري [١٠٤]، ومسلم [١٣٥٤].

فوداهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتبرأ من صنيع خالد بهم^(١).

وكان أيضًا في تلك البعوث بعث خالد أيضًا إلى العُزَّى، وكان بيتًا تُعظَّمه قريش وكنانة وجميع مُضَر، فدمرها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من إمام وشجاع^(٢).

وكان عكرمة بن أبي جهل قد هرب إلى اليمن، فلحقته امرأته وهي مسلمة، وهي أم حكيم بنت الحارث بن هشام، فردته بأمان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأسلم وحسن إسلامه^(٣).

وكذا صفوان بن أمية كان قد فرَّ إلى اليمن، فتبعه صاحبه في الجاهلية عمير بن وهب بأمان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فردّه، وسيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربعة أشهر، فلم تمضِ حتى أسلم وحسن إسلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٤) [المصدر السابق].

غزوة حنين أو غزوة هوزان

ولما بلغ فتح مكة هوزان جمعهم مالك بن عوف النَّصْرِي، فاجتمع إليه ثقيف وقومه بنو نصر بن معاوية، وبنو جُشَم، وبنو سعد بن بكر، وبَشَرٌ من بني هلال بن عامر، وقد استصحبوا معهم أنعامهم ونساءهم لئلا يفروا، فلما تحقق ذلك دريد بن الصمة شيخ بني جشم؛ وكانوا قد حملوه في هودج لكبره تيمناً برأيه، أنكر ذلك على مالك بن عوف النَّصْرِي وهجنه، وقال: إنها إن كانت (لك).

(١) رواه البخاري [٤٣٣٩].

(٢) بعث خالد إلى العزى فهدمها متفق عليه.

(٣) أخرجه ابن هشام (٤١٨/٢)، والطبري في (تاريخه) (١٦٢/٢).

(٤) أخرجه ابن هشام (٤١٧/٢)، وابن جرير في (تاريخه) (١٦٢/٢).

لم ينفعك ذلك، وإن كانت عليك فإن المنهزم لا يرُدُّه شيء، وحرَّضهم على ألا يقاتلوا إلا في بلادهم، فأبوا عليه ذلك واتبعوا رأيَ مالك بن عوف، فقال دُرَيْدٌ: هذا يوم لم أشهده ولم يغب عني^(١).

وبعث صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد الله بن أبي حَدرَد الأسلمي فاستعلم له خبرَ القوم وقصَّدهم، فتهيأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقائهم، واستعار من صفوان بن أمية أدراعاً^(٢)، قيل: مائة، وقيل: أربعمائة، واقترض منه جملة من المال، وسار إليهم في العشرة آلاف الذين كانوا معه في الفتح، وألفين من طُلُقَاء مكة، وشهد معه صفوان بن أمية حُنيئاً وهو مشرك، وذلك في شوال من هذه السنة، واستخلف على مكة عَتَّاب بن أُسَيْد، وله نحو عشرين سنة.

ومرَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مسيره ذلك على شجرة يعظّمها المشركون يُقال لها: ذات أنواط، فقال بعض جهال العرب: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال: «قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، لتركبن سنن من كان قبلكم؟»^(٣).

ثم نهض صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوافى حُنيئاً، وهو وادٍ حَدُور من أودية تهامة، وقد كمنت لهم هوازن فيه، وذلك في عَمَاية الصبح، فحملوا على المسلمين حملة رجل واحد، فولَّى المسلمون لا يلوي أحد على أحد، فذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ

(١) أخرجه ابن هشام (٤٣٧/٢) وغيره. وقد وصله الحاكم (٤٨/٣-٤٩).

(٢) رواه الطبري في (التاريخ) (١٦٧/٢) عنه.

(٣) رواه عبد الرزاق في (المصنف) [٤٠٧٦٣]، وأحمد (٢١٨/٥).

حَنِينٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ [التوبة: ٢٥]، وذلك أن بعضهم قال: لن نغلب اليوم من قلة^(١)، وثبت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يَفِرَّ، ومعه الصحابة: أبو بكر، وعمر، وعليٌّ، وعمُّه العباس، وابناه: الفضل، وقُثم، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وابنه جعفر، وآخرون، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومئذ راکب بغلته التي أهداها له فُروة بنُ نفاثة الجذامي، وهو يَرْكُضُهَا إلى وجه العدو، والعباس أخذٌ بحكمتها يكفُّها عن التقدم، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُنَوِّه باسمه يقول: «أنا النبي لا كذب .. أنا ابن عبد المطلب»^(٢).

ثم أمر العباس، وكان جهير الصوت، أن ينادي: يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب الشجرة، يا معشر أصحاب السمرة، فلما سمعه المسلمون وهم فارون كروا وأجابوه:

ليك ليك، وجعل الرجل إذا لم يستطع أن يثني بغيره لكثرة المنهزمين، نزل عن بغيره وأخذ درعه فلبسها، وأخذ سيفه وترسه، ويرجع راجلاً إلى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى إذا اجتمع حوله عصابة منهم نحو المائة، استقبلوا هوازن فاجتلدواهم وإياهم، واشتدت الحرب، وألقى الله في قلوب هوازن الرعب حين رجعوا، فلم يملكو أنفسهم، ورماهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقبضة حصى بيده، فلم يبق

(١) أخرجه ابن هشام (٢/ ٤٤٤)، رواه أحمد (١/ ٢٩٤)، وأبو داود [٢٦١١].

(٢) رواه البخاري (٢٨٦٤، ٤٣١٥)، ومسلم [١٧٧٦].

منهم أحدٌ إلا ناله منها^(١)، وفسر قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]. بذلك، وعندي في ذلك نظر، لأن الآية نزلت في قصة بدر كما تقدم.

وتفر هوازن بين يدي المسلمين، ويتبعونهم يقتلون ويأسرون، فلم يرجع آخر الصحابة إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا والأسارى بين يديه، وحاز صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أموالهم وعيالهم.

وانحازت طوائف من هوازن إلى أوطاس، فبعث صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم أبا عامر الأشعري؛ واسمه عُبيد، ومعه ابن أخيه أبو موسى الأشعري حامل راية المسلمين في جماعة من المسلمين، فقتلوا منهم خلقاً، وقتل أمير المسلمين أبو عامر؛ رماه رجل فأصاب ركبته، وكان منها حتفه، فقتل أبو موسى قاتله، وقيل: بل أسلم قاتله بعد ذلك، وكان أحد إخوة عشرة قتل أبو عامر التسعة قبله، فالله أعلم، ولما أخبر أبو موسى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك استغفر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي عامر^(٢).

وكان أبو عامر رابع أربعة استشهدوا يوم حنين، والثاني أيمن بن أم أيمن، والثالث يزيد بن زَمْعَة بن الأسود، والرابع سُراقَة بن الحارث بن عدي من بني العجلان من الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وأما المشركون فقتل منهم خلق كثير.

وفي هذه الغزوة قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ» في قصة أبي قتادة

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [المصدر السابق].

(١) رواه رواه مسلم [١٧٧٥]، وأحمد (١/ ٢٠٧).

(٢) رواه البخاري [٤٣٢٣]، ومسلم [٢٤٩٨].

غزوة تبوك

وهي غزوة العسرة، ولما أنزل الله عَزَّجَلَّ على رسوله: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩]. ندب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب إلى الجهاد، وأعلمهم بغزو الروم، وذلك في رجب من سنة تسع، وكان لا يريد غزوة إلا ورى غيرها، إلا غزوته هذه، فإنه صرح لهم بها ليتأهبوا لشدة عدوهم وكثرته، وذلك حين طابت الثمار، وكان ذلك في سنة مجدبة، فتأهب المسلمون لذلك .

وأنفق عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الجيش -وهو جيش العسرة- مالا جزيلا ف قيل: ألف دينار، وقال بعضهم: إنه حمل على ألف بغير ومائة فرس وجهازها أتمَّ جَهَازٍ حتى لم يفقدوا عقالا ولا خطاما؛ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ونهب ضُفْلٌ بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في نحو من ثلاثين ألفا، واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة، وقيل: سباع بن عرفطة، وقيل: علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والصحيح أن عليا كان خليفة له على النساء والذرية، ولهذا لما آذاه المنافقون فقالوا: تركه على النساء والذرية، لحق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فشكا إليه ذلك، فقال: «أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى غَيْرَ أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»^(١).

وقد خرج معه عبد الله بن أبي رَأْسٍ النفاق، ثم رجع من أثناء الطريق^(٢).

(١) رواه البخاري [٤٤١٦]، ومسلم [٢٤٠٤].

(٢) هذا من قول ابن إسحاق أخرجه ابن هشام (٥١٩/٢).

وتخلف عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النساء والذرية، ومن عذره الله من الرجال ممن لا يجد ظهرًا يركبه أو نفقة تكفيه، فمنهم البكاءون، وكانوا سبعة: سالم بن عُمير، وعُلبة بن زيد، وأبو ليلي عبد الرحمن بن كعب، وعمرو بن الحُمَام، وعبد الله بن مُغفل المزني، وهَرَمي بن عبد الله، وعِرباض بن سارية الفزاري (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) ^(١).

وتخلف منافقون كفراً وعناداً وكانوا نحو الثمانين رجلاً.

وتخلف عصاةٌ مثل: مُرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، ثم تاب الله عليهم بعد قدومه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخمسين ليلة ^(٢).

فسار صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَرَّ في طريقه بالحِجْر ^(٣)، فأمرهم أن لا يدخلوا عليهم بيوتهم إلا أن يكونوا باكين، وأن لا يشربوا إلا من بئر الناقة، وما كانوا عجنوا به من غيره فليطعموه للإبل، وجازها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقتعاً ^(٤).

فبلغ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبوك وفيها عينٌ تَبْضُ بشيء من ماء قليل، فكثر بركته ^(٥)، مع ما شوهده من بركة دعائه في هذه الغزوة؛ من تكثير الطعام الذي كان حاصل الجيش جميعه منه مقدار العنز البارقة، فدعا الله عَزَّجَلَّ فأكلوا منه وملؤوا كل وعاء كان في ذلك الجيش ^(٦)، وكذا لما عطشوا دعا الله تعالى فجاءت سحابة

(١) رواه ابن إسحاق مرسلاً أخرجه ابن هشام (٢/ ٥١٨)، والطبري في (تاريخه) (٢/ ١٨٢).

(٢) هذا من حديث كعب بن مالك وسبق تخريجه في بداية الكلام على الغزوة.

(٣) المراد بالحجر هنا حجر ثمود: وهو ديارهم وتقع بين المدينة والشام.

(٤) رواه البخاري [٤٣٣]، ومسلم [٢٩٨٠].

(٥) رواه مسلم [٧٠٦]، وأحمد (٥/ ٢٣٨).

(٦) رواه مسلم [٢٧]، وأحمد (٣/ ١١) من حديث أبي هريرة.

فأمطرت، فشرّبوا حتى رووا واحتملوا، ثم وجدوها لم تتجاوز الجيش^(١)، في آياتٍ آخرَ كثيرة احتاجوا إليها في ذلك الوقت.

ولما انتهى إلى هناك لم يلق غزواً، ورأى أن دخولهم إلى أرض الشام هذه السنة يشق عليهم، فعزم على الرجوع، وصالح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَنَّةَ بن رُؤْبَةَ صاحب أيلة^(٢). وبعث خالدًا إلى أكيدر دومة، فجيء به فصالحه أيضًا، وردّه^(٣).

ثم رجع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعد رجوعه أمر بهدم مسجد الضرار، وكان قد أُخرج من دار خدام ابن خال، وهدمه بأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مالك بن الدُخْشُم أخو بني سالم، أحد رجال بدر، وآخر معه اختلف فيه، وهو المسجد الذي نهى الله ورسوله أن يقوم فيه أبدًا^(٤) [المصدر السابق].

حديث الأفك

النادرة الثانية: وهي أفضع من الأولى وأجلب منها للمصائب؛ وهي رمي عائشة الصديقة؛ زوج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإفك، فاتهموها بصفوان بن المعطل السلمي، وذلك أنهم لما دنوا من المدينة أذن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة بالرحيل، وكانت السيدة عائشة قد مضت لقضاء حاجتها حتى جاوزت الجيش، فلما قضت شأنها أقبلت إلى رَحْلها، فلمست صدرها فإذا عقدٌ لها من جزع ظفَارٍ قد انقطع،

(١) رواه البزار [١٨٤١] (كشف الأستار)، وابن حبان [١٣٨٣]، والحاكم (١/١٥٩).

(٢) رواه البخاري (١٤٨١-١٨٧٢-٣١٦١)، ومسلم [١٣٩٢].

(٣) رواه ابن إسحاق مرسلًا. أخرجه ابن هشام (٢/٥٢٦). رواه الطبراني في (تاريخه) (٢/١٨٥).

(٤) مرسل: رواه ابن إسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم قالوا: فذكر القصة.

فرجعت تلتمس عقدها، فحبسها ابتغاؤه، فأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون، فاحتملوا هودجها ظانين أنها فيه، لأن النساء كنَّ إذ ذاك خفافاً لم يغشن اللحم، فلم يستنكر القوم خفة الهودج، وكانت عائشة جارية حديثة السن، فجاءت منزل الجيش بعد أن وجدت عقدها، وليس بالمنزل داعٍ ولا مُجيب، فغلبتها عينها فنامت، وكان الذي يسير وراء الجيش يفتقد ضائعته صفوان بن المعطل، فأصبح عند منزلها فعرفها لأنه كان رآها قبل الحجاب، فاسترجع، فاستيقظت باسترجاعه وسترت وجهها بجلبابها، فأناخ راحلته وأركبها من غير أن يتكلما بكلمة، ثم انطلق يقود بها الراحلة حتى وصل الجيش وهو نازل للراحة، فقامت قيامة أهل الإفك، وقالوا ما قالوا في عائشة وصفوان، والذي تولى كبر الإفك عبد الله بن أبي.

ولما قدموا المدينة مرضت عائشة شهراً، والناس يفيضون في قول الإفك، وهي لا تشعر بشيء، وكانت تعرف في رسول الله ﷺ رقة إذا مرضت، فلم يعطها نصيباً منها في هذا المرض؛ بل كان يمر على باب الحجرة لا يزيد على قوله: «كيف حالكم؟» مما جعلها في ريب عظيم، فلما نَقِهَتْ خرجت هي وأم مسطح بن أثاثة - أحد أهل الإفك - للتبرز خارج البيوت، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح! فقالت عائشة: بئس ما قلت!! أتسبين رجلاً شهد بدرًا؟ فقالت: يا هَتَّاهُ، أو لم تسمعي ما قالوا؟ فسألته عائشة عن ذلك فأخبرتها الخبر، فازدادت مرضاً على مرضها.

ولما جاءها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كعادته، استأذنته أن تمرض في بيت أبيها، فأذن لها، فسألت أمها عما يقول الناس، فقالت: يا بنية هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قطّ وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، فقالت عائشة: سبحان الله أو قد تحدث الناس بهذا؟ وبكت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع، ولا تكتحل بنوم.

وفي خلال ذلك كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستشير كبار أهل بيته فيما يفعل، فقال له أسامة لما يعلمه من براءة عائشة: أهلك أهلك، ولا نعلم عليهم إلا خيراً، وقال علي بن أبي طالب: لم يُضَيِّقِ الله عليك، والنساء سواها كثير، وسَلِ الجارية تصدّقك، فدعا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بريرة جارية عائشة، وقال لها: هل رأيت من شيء يريبك؟ فقالت: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً قطّ أغمصه غير أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجينها، فتأتي الداجن فتأكله.

فقام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من يومه وصعد المنبر والمسلمون مجتمعون وقال: «مَنْ يَغْدِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَذَاهُ فِي أَهْلِي؟ وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِيَ». فقال سعد بن معاذ: أنا يا رسول الله أَعْدِرُكَ منه، فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، فقام سعد بن عبادة الخزرجي وقال: كذبت لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحبيت أن يُقتل، فقام أسيد بن حضير، وقال لسعد بن عبادة: كذبت، لعمر الله لنقتله؛ فإنك منافق تجادل عن المنافقين، وكادت تكون فتنة بين الأوس والخزرج لولا أن رسول الله نزل من فوق المنبر وخفّضهم حتى سكتوا.

أما عائشة فبقيت ليلتين لا يرقأ لها دمع، ولا تكتحل بنوم، وبينما هي مع أبويها إذ دخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسلم ثم جلس فقال: «أَمَّا بَعْدُ، يَا عَائِشَةُ، إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتَ بَرِيئَةً، فَسَيِّرُكَ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتَ أَلَمَمْتَ بِذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ» فتقلص^(١) دمع عائشة، وقالت لأبويها: أجبيا رسول الله، فقالا: والله ما ندرى ما نقول، فقالت: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة - لتصدقوني، فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حيث قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

ثم تحولت واضطجعت على فراشها، ولم يزاوِل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجلسه حتى نزلت عليه الآيات من سورة النور ببراءة السيدة المطهرة عائشة الصديقة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ١٢ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ١٣ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٤ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالِسِّنِّاتِ وَقَوْلُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ١٥ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ

(١) تقلص: انضم وانزوى، أى: جف.

هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيَسِّنُّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ
رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَتَّيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ
بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿النور: ١١-٢١﴾. فسري عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يضحك، وبشر
عائشة بالبراءة، فقالت لها أمها: قومي واشكري رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت:
لا والله، لا أشكر إلا الله الذي برأني.

وبعد ذلك أمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يجلد من صرَّح بالإفك ثمانين جلدة، وهي
حد القاذف، وكانوا ثلاثة: حمنة بنت جحش، ومسطح بن أثاثه، وحسان بن ثابت.
وكان أبو بكر ينفق على مسطح بن أثاثه لقرابته منه، فلما تكلم بالإفك قطع
عنه النفقة، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتِلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ
وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
[النور: ٢٢]، فقال أبو بكر: بل نحب ذلك يا رسول الله، وأعاد النفقة على مسطح.

فهذه مضار المنافقين الذين يدخلون بين الأمم مظهرين لهم المحبة وقلوبهم
مملوءة حقداً يتربصون الفتنة، فمتى رأوا باباً لها ولجوه، فنعوذ بالله منهم.

حجة الصديق وتواتر الوفود وبعث الرسل

وبعث صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أميرًا على الحج هذه السنة، وأردفه عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسورة براءة: أن لا يحج بعد العام مشرك، وأن لا يطوف بالبيت عريان، وينبذ إليهم عهودهم إلا من كان ذا عهد مقدر فعهدته إلى مدته.

وتواترت الوفود هذه السنة وما بعدها على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مدعنة بالإسلام، وداخلين في دين الله أفواجًا كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝﴾ (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿﴾ [النصر: ١-٣].

وبعث صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاذ بن جبل إلى اليمن ومعه أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وبعث الرسل إلى ملوك الأقطار يدعوهم إلى الإسلام. وانتشرت الدعوة، وعلت الكلمة، وجاء الحق، وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقًا.

حجة الوداع

نذكر فيه ملخص حجة الوداع وكيفيةها بعون الله ومَنِّه وحسن توفيقه وهدايته، فنقول وبالله التوفيق:

صلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظهر يوم الخميس لست بقين من ذي القعدة من سنة عشر بالمدينة، ثم خرج منها بمن معه من المسلمين من أهل المدينة ومن تجمع من الأعراب، فصلى العصر بذى الحليفة ركعتين، وبات بها^(١).

(١) رواه البخاري (١٥٤٦، ١٥٤٧)، ومسلم.

وأتاه أت من ربه عَزَّجَلَّ في ذلك الوضع - وهو وادي العقيق - يأمره عن ربه عَزَّجَلَّ أن يقول في حجته هذه: حجة في عمرة^(١)، ومعنى هذا أن الله أمره أن يقرن الحج مع العمرة، فأصبح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبر الناس بذلك، فطاف على نسائه يومئذ بغسل واحد؛ وهن تسع، وقيل: إحدى عشرة، ثم اغتسل وصلى في المسجد ركعتين، وأهل بحجة وعمرة معاً، هذا الذي رواه بلفظه ومعناه عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ستة عشر صحابياً، منهم خادمه أنس بن مالك^(٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وساق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الهدي من ذي الحليفة، وأمر من كان معه هدي أن يهل كما أهل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وسار صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والناس بين يديه وخلفه، وعن يمينه وشماله أمماً لا يحصون كثرة، كلهم قدم ليأتم به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣)، فلما قدم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة طاف للقدوم، ثم سعى بين الصفا والمروة، وأمر الذين لم يسوقوا هدياً أن يفسخوا حجهم إلى عمرة ويتحللوا تحللاً تاماً، ثم يهلوا بالحج وقت خروجهم إلى منى، ثم قال: «لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا سَقْتُ الْهَدْيَ وَلَجَعَلْتُهَا عَمْرَةً».

وقدم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من اليمن فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بِمَ أَهَلَلْتُ؟» قُلْتُ: أَهَلَلْتُ بِإِهْلَالِكَ، قَالَ: «فَإِنِّي سَقْتُ الْهَدْيَ، وَقَرَنْتُ». روى هذا اللفظ أبو داود وغيره من الأئمة بإسناد صحيح، فهذا صريح في القران، وقدم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من اليمن هدياً، وأشركه في هديه أيضاً، وكان حاصلها مائة بدنة.

(١) رواه البخاري [١٥٣٤].

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم [١٢١٨]، ومسلم.

ثم خرج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى منى فبات بها، وكانت ليلة الجمعة التاسع من ذي الحجة.

ثم أصبح فسار إلى عرفة وخطب تحت سمرة خطبة عظيمة، شهدها من أصحابه نحو من أربعين ألفاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، وجمع بين الظهر والعصر ثم وقف بعرفة.

ثم بات بالمزدلفة، وجمع بين المغرب والعشاء ليلتذ، ثم أصبح فصلى الفجر في أول وقتها.

ثم سار قبل طلوع الشمس إلى منى، فرمى جمرة العقبة، ونحر، وحلق، ثم أفاض فطاف بالبيت طواف الفرض وهو طواف الزيارة، واختلف أين صلى الظهر يومئذ، وقد أشكل ذلك على كثير من الحفاظ.

ثم حلَّ من كل شيء حرم منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وخطب ثاني يوم النحر خطبة عظيمة أيضاً، ووصى وحذر وأنذر، وأشهدهم على أنفسهم أنه بلغ الرسالة. فنحن نشهد أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسليماً كثيراً دائماً إلى يوم الدين.

ثم أقبل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منصرفاً إلى المدينة، وقد أكمل الله له دينه [المصدر السابق].

مرض ووفاة الحبيب ﷺ

قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

اشتكى النبي ﷺ من سُمٍّ أصابه منذ العام السابع الهجري، فقد تناول بعد فتح خيبر قطعة لحم من شاة مسمومة مشوية قدمتها له زوجة سلام بن مشكم اليهودية، ورغم أنه ﷺ كان قد لفظ اللقمة ولم يتلعتها فإن نوعية وكثافة السم الذي احتوته قد أثر عليه، أما مرضه الأخير فكان قد ألمَّ به أول ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة، وبعد شهرين ونصف من عودته إلى المدينة من حجة الوداع؛ حيث شعر ﷺ بالمرض وهو في بيت أم المؤمنين ميمونة، وطلب من زوجاته أن يُمَرِّض في بيت أم المؤمنين عائشة، واستغرق مرضه عشرة أيام، وكانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقرأ بالمعوذتين والأدعية المأثورة عن النبي ﷺ وتمسحه بيده رجاء البركة، وفي اليوم الخامس من مرضه ﷺ اشتدت عليه الحمى، فطلب أن يصبوا عليه الماء حتى يخرج للناس فيعهد إليهم، وبعد أن استحكم أحس بخفة فعصب رأسه، ودخل المسجد فصعد المنبر، وخطب، فنهى عن اتخاذ قبره وثناً يُعبد، ولعن اليهود والنصارى لاتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد، وعرض نفسه للقصاص، وأوصى بالأنصار خيراً، وفي نهاية خطبته قال ﷺ: «إِنَّ عَبْدًا خَيْرُهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ»، وقد اشتد بكاء أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فعجب الناس من ذلك، فكان المُخَيَّر رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر أعلمهم بذلك، وأثنى النبي ﷺ على

أبي بكر في صحبته وما أنفق في سبيل الله ونصرة الإسلام، فقال: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا غَيْرَ رَبِّي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ»، وأمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألا يبقى في المسجد باب إلا سُدَّ إلا باب أبي بكر.

وقبل وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأربعة أيام أوصى بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب، كما أمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم.

وحين اشتد وجعه ذلك اليوم قال للصحابة الذين كانوا معه: «هَلُمُّوا أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّوا بَعْدَهُ»، فاختلفوا، وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتابُ الله»، فلما أكثروا اللغط والاختلاف قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُومُوا عَنِّي». وفي اليوم التالي أثر عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «أَحْسِنُوا الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».

وقد أثقله بعد ذلك المرض، ومنعه من الخروج للصلاة بالناس، فقال: «مُرُّوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»، وقد راجعته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقالت: إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن، فأصر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك فمضى أبو بكر يصلي بهم، وحين شعر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ذلك بتحسن وخرج لصلاة الظهر، وهو يتوكأ على رجلين رآه أبو بكر، فأراد أن يتأخر فأومأ إليه ألا يتأخر فأجلسه بجانبه، فجعل أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصلي وهو قائم بصلاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والناس يصلون بصلاة أبي بكر.

أعتق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في اليوم السابق لوفاته غلمانه وتصدق بما كان معه من دنائير، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا نورث، ما تركناه صدقة».

أطلَّ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجر يوم وفاته على المسلمين وهم يستوون لصلاة الصبح، حيث كشف ستر حجرته ونظر إليهم وتبسم، وهمَّ المسلمون أن يُفتنوا في صلاتهم فرحاً برسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتأخَّر أبو بكر عن موضع الإمام ملتحقاً بالصف الأول، غير أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشار إليهم بيده الكريمة: أن أتموا صلاتكم، ثم دخل حجرة عائشة، وأرخى الستر.

ودخلت عليه فاطمة الزهراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند الضحى، فقالت: «وَا كَرَبَ أَبْتَاهُ»، فقال لها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ عَلَى أَبِيكَ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ»، ثم دعاها فسارَّها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارَّها بشيء فضحكت، فأخبرت بعد وفاته أنه أخبرها بموته فبكت، ثم أخبرها بأنها أول أهله لحاقاً به فضحكت، والحديث من دلائل نبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن ما أخبرها به قد كان، وكان آخر ما تكلم به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يستند إلى صدر أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن قال: «مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى، اللَّهُمَّ في الرفيق الأعلى» كررها ثلاثاً.

وكانت وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين اشتد الضحى من يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول عام إحدى عشرة للهجرة، وقد نادى فاطمة الزهراء: «يَا أَبْتَاهُ، أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ، يَا أَبْتَاهُ، مَنْ جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ، مَاوَاهُ يَا أَبْتَاهُ إِلَى جَبْرِيلَ نَنْعَاهُ».

ولم يصدّق عمر بن الخطاب نبأ وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتهدد من يقول ذلك، أما أبو بكر فقد جاء من بيته بالسُّنْح ودخل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكشف عن وجهه وقبّله وبكى، ثم خرج إلى الناس، وهم بين مصدّق ومنكر، فقال: أما بعد، من كان يعبدًا محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

أخلاقه العطرة

١ - حسن خلقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، سأل رجل من التابعين أم المؤمنين عائشة عن أخلاق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت: «كان قرآنًا يمشي على الأرض»، وفي رواية: «كان خلقه القرآن».

وعن أبي هريرة قال: قالوا يا رسول الله، إنك تُداعِبُنَا. قال: «إِنِّي لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا» [رواه أحمد، وصححه الألباني].

وعن عائشة دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ، فَفَهَّمْتُهَا، فَقُلْتُ: عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَهْلًا، يَا عَائِشَةُ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ لَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَقَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ» [رواه البخاري].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا عَابَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَعَامًا قَطُّ، إِنْ اشْتَهَاهُ أَكَلَهُ، وَإِلَّا تَرَكَهُ» [رواه البخاري].

٢- عبادته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى حَتَّى انْتَفَخَتْ قَدَمَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: أَتَكْلِفُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقْدُمُ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخُرُ؟ فَقَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا» [رواه البخاري].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةً فَلَمْ يَزَلْ قَائِمًا حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سَوْءٍ؛ قِيلَ لَهُ: وَمَا هَمَمْتَ قَالَ: هَمَمْتُ أَنْ أَفْعَدَ وَأَذَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» [رواه البخاري].

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَانْتَحَ الْبَقَرَةُ فَقُلْتُ يَرْكُعُ عِنْدَ الْمَائَةِ. ثُمَّ مَضَى فَقُلْتُ يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ فَمَضَى فَقُلْتُ يَرْكُعُ بِهَا. ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا يَتَرَسَّلًا إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ». فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ ثُمَّ قَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ». ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى». فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ» [رواه مسلم].

وعن علقمة قال: سألت عائشة: أكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يخص شيئاً من الأيام؟ قالت: «لا، كان عمله ديمة، وأيكم يطيق ما كان يطيق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟» [رواه البخاري].

وعن حميد قال: سئل أنس بن مالك عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل، فقال: «ما كنا نشاء من الليل أن نراه مصلياً إلا رأيناه، وما كنا نشاء أن نراه نائماً إلا رأيناه، وكان يصوم من الشهر حتى نقول لا يفطر شيئاً» [رواه البخاري].

٣- خشيته صلى الله عليه وسلم:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: «اللهم أعوذ بربك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أخصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» [رواه مسلم]، وقولها «في المسجد»: أي في الموضع الذي كان يصلي فيه من حجرته.

وعن ثابت عن مطرف عن أبيه قال: «أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل؛ يعني: يبكي» [رواه النسائي، وصححه الألباني].

وعن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجل: «كيف تقول في الصلاة؟» قال: أتشهد وأقول: اللهم إني أسألك الجنة، وأعوذ بك من النار. أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «حولها ندندن».

[رواه أبو داود، وصححه الألباني]

وعن عائشة قالت: لما كان ليلة من الليالي قال: «يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي» قلت: والله إني لأحب قربك وأحب ما سرك، قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي قالت: فلم يزل يبكي حتى بل حجره، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى

بَلِّ لِحَيْتَيْهِ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ فَلَمَّا رَأَاهُ يَبْكِي قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟ لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةُ آيَةٌ وَبَلَ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا، ﴿إِنَّكَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾».

[آل عمران: ١٩٠] [رواه ابن حبان، وصححه الألباني]

٤- رحمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلا قول الله عَزَّجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّمَنْ أَضَلَّنَا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦]، الآية. وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي»، وَبَكَى، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ -وَرَبُّكَ أَعْلَمُ- فَسَلِّمْهُ مَا يُبْكِيكَ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا قَالَ -وَهُوَ أَعْلَمُ- فَقَالَ اللَّهُ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسْؤُوكَ [رواه مسلم].

وعن أبي قتادة قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي لَا قُومُ إِلَى الصَّلَاةِ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَطُولَ فِيهَا، فَاسْمَعْ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَاتَجَوَّزْ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَةً أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ».

[رواه البخاري]

وقال رسول الله ﷺ: «لَوْلَا أَنِ أَشَقَّ عَلَى أُمَّتِي أَوْ عَلَى النَّاسِ لَأَمَرْتُهُمْ بِالسَّوَالِكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ» [رواه البخاري].

٥- عضوه ﷺ:

كان يعفو عمن ظلمه، ويُعطي من حرمه، ويصل من قطعه.
وضعت يهودية له سُمًّا في الطعام، فسألها، فقالت: نعم، وضعتُ لك سُمًّا، فقال: لماذا؟ قالت: أردتُ قتلَك، فقال الصحابة: نقتلها يا رسول الله؟ قال: لا، وعفى عنها رسول الله ﷺ.

وتأمل عندما دخل مكة بجيش كبير فيه الآلاف، ويستطيع أن يدك أهل مكة دكًّا، الذين آذوه وقتلوا أقاربه وأصحابه، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وأهلهم، فقال لهم: «ما تظنون أنني فاعلٌ بكم؟»، فقالوا في ضعفٍ: أخٌ كريمٌ وابن أخٍ كريمٍ، فقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَذْرَكُهُ أَعْرَابِيٌّ، فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ، قَدْ أَثَرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مُرِّي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ؛ فَالْتَمَتَ إِلَيْهِ، فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ [رواه البخاري].

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا نِيلَ، مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلَّا أَنْ يُتْهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ [رواه مسلم].

٦- صبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم الناس بلاءً، فقد قال: «إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» [رواه أحمد، وصححه الألباني]، فقد وُلِدَ يتيماً، وماتت أمه بعد ست سنوات من عمره، وكان فقيراً، ومات أولاده كلهم في حياته إلا فاطمة، وسُحر، وكان كثير المرض - كما قالت عائشة - واتَّهَمَتْ أَطْهَرَ امرأة في عصرها عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وأنزل الله تعالى بعدها براءتها من فوق سبع سموات قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها قالت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمٍ أُحُدٍ؟ قَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظْلَتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جَبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنَّ أُطَبِّقُ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» [متفق عليه].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ يُوعَكُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّكَ تُوعَكُ وَعَكًا شَدِيدًا، قَالَ: «أَجَلْ، إِنِّي

أَوْعَكَ كَمَا يُوعَكَ رَجُلَانِ مِنْكُمْ» قُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ. قَالَ: «أَجَلٌ. ذَلِكَ كَذَلِكَ. مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَدَى، شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا». [متفق عليه].

٧- رضاه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَلَسَ عَلَى الْمَنْبَرِ، فَقَالَ: «إِنَّ عَبْدًا خَيْرُهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ» فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِأَبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَعَجِبْنَا لَهُ، وَقَالَ النَّاسُ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا الشَّيْخِ، يُخْبِرُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَبْدٍ خَيْرُهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: فَدَيْنَاكَ بِأَبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْمُخِيرَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمَنَا بِهِ» [رواه البخاري].

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى أَبِي سَيْفِ الْقَيْنِ - وَكَانَ ظُفْرًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ، بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَذْرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ»، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْعَيْنَ تَذْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ، يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ».

[رواه البخاري]

٨- تواضعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَكُلْ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسْ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ» [السلسلة الصحيحة].

عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَكِبَ عَلَى حِمَارٍ، عَلَى إِكَافٍ عَلَيْهِ قُطِيفَةٌ فَدَكِيَّةٌ، وَأَرْدَفَ أَسَامَةَ وَرَأَاهُ [رواه البخاري].

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ كَانَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَخَالِطُنَا، حَتَّى يَقُولَ لِأَخٍ لِي صَغِيرٍ: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ» [رواه البخاري].

عن عروة بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هَلْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ كَمَا يَعْمَلُ أَحَدُكُمْ فِي بَيْتِهِ.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَقَدْ سُئِلَتْ عَمَّا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْنَعُ فِي أَهْلِهِ: قَالَتْ: «كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ -تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ- فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ» [رواه البخاري].

عن عبد الله بن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ الذِّكْرَ، وَيُقِلُّ اللَّغْوَ، وَيُطِيلُ الصَّلَاةَ، وَيُقَصِّرُ الْخُطْبَةَ، وَلَا يَأْنَفُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَ الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ فَيَقْضِيَ لَهُ الْحَاجَةَ [رواه النسائي، وصححه الألباني].

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى» [رواه البخاري].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إِنْ كَانَتِ الْأَمَّةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ» [رواه البخاري].

٩- زَهْدُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

قال أبو هريرة: «وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ مَا شَبَعَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَهْلُهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ تَبَاعًا مِنْ خُبْزِ حِنْطَةٍ حَتَّى فَارَقَ الدُّنْيَا» [رواه البخاري ومسلم].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبِيتُ اللَّيَالِيَ الْمُتَتَابِعَةَ طَاوِيًا وَأَهْلُهُ لَا يَجِدُونَ عِشَاءً وَكَانَ أَكْثَرُ خُبْزِهِمْ خُبْزَ الشَّعِيرِ».

[رواه الترمذي، وصححه الألباني]

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: نَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ وَطَاءً؟ فَقَالَ: «مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاجِيٍّ اسْتَظَلَ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا».

[رواه الترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني]

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «إِنَّمَا كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي يَنَامُ عَلَيْهِ أَدَمًا حَشْوُهُ لَيْفٌ» [رواه البخاري ومسلم].

١٠- وَرَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَخَذَ تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَيْفَ كُنْجَ أَلْقَاهَا أَمَا شَعَرْتَ أَنَا أَهْلَ بَيْتٍ لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ» [رواه الترمذي، وصححه الألباني].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي لَا نَقْلِبُ إِلَى أَهْلِي فَأَجِدُ التَّمْرَةَ سَاقِطَةً عَلَى فِرَاشِي ثُمَّ أَرْفَعُهَا لَا كُلُّهَا ثُمَّ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً فَأَلْقِيَهَا».

[رواه البخاري ومسلم]

١١- وَفَاؤُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

عن أبي رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَعَثَنِي قُرَيْشٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُلْقِيَ فِي قَلْبِي الْإِسْلَامُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي وَاللَّهِ لَا أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ أَبَدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي لَا أَخِيسُ بِالْعَهْدِ وَلَا أَحْبَسُ الْبُرْدَ، وَلَكِنْ أَرْجِعُ فَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِكَ الَّذِي فِي نَفْسِكَ الْآنَ فَارْجِعْ». قَالَ: فَذَهَبْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْلَمْتُ [رواه أبو داود، وصححه الألباني].

عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلَّا أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي - حُسَيْلٌ - قَالَ: فَأَخَذْنَا كُفَّارَ قُرَيْشٍ، قَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا، فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ، مَا نُرِيدُ إِلَّا الْمَدِينَةَ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلَا نَقَاتِلَ مَعَهُ فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ فَقَالَ: «انْصَرِفَا نَفِي لَهُمْ

بِعَهْدِهِمْ وَتَسْتَعِينُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» [رواه مسلم].

١٢ - إنفاقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ - حِينَ يَلْقَاهُ جَبْرِيلُ - وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، فَيَدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ [متفق عليه].

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ، وَلَقَدْ فَرَعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَانْطَلَقَتْ نَاسٌ قَبْلَ الصَّوْتِ فَتَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَاجِعًا وَقَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى الصَّوْتِ وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرِيٍّ فِي عُنُقِهِ السَّيْفُ وَهُوَ يَقُولُ: «لَمْ تُرَاعُوا لَمْ تُرَاعُوا». قَالَ: «وَجَدْنَاهُ بَحْرًا أَوْ إِنَّهُ لَبَحْرٌ». قَالَ: وَكَانَ فَرَسًا يُبْطَأُ [رواه مسلم].

عن جابر بن عبد الله الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ قَدْ جَاءَنَا مَالُ الْبَحْرَيْنِ لَقَدْ أُعْطِيتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا». وَقَالَ بِيَدَيْهِ جَمِيعًا فَقُبِضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ فَقَدِمَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ بَعْدَهُ فَأَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى مَنْ كَانَتْ لَهُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِدَّةٌ أَوْ دَيْنٌ فَلْيَأْتِ، فَقُمْتُ فَقُلْتُ: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَوْ قَدْ جَاءَنَا مَالُ الْبَحْرَيْنِ أُعْطِيتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا». فَحَتَّى أَبُو بَكْرٍ مَرَّةً ثُمَّ قَالَ لِي: عُدَّهَا، فَعَدَدْتُهَا فَإِذَا هِيَ خَمْسُمِائَةٍ فَقَالَ: خُذْ مِثْلَيْهَا [رواه مسلم].

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: يَا

قَوْمَ أَسْلِمُوا؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطَى عَطَاءً لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ [رواه مسلم].

١٣- إيشاره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَتْ امْرَأَةٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبُرْدَةٍ، فَقَالَ سَهْلٌ لِلْقَوْمِ: أَتَدْرُونَ مَا الْبُرْدَةُ؟ فَقَالَ الْقَوْمُ: هِيَ الشَّمْلَةُ، فَقَالَ سَهْلٌ: هِيَ شِمْلَةٌ مَنْسُوجَةٌ فِيهَا حَاشِيَتُهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكْسُوكَ هَذِهِ، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا فَلَبِسَهَا، فَرَأَاهَا عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَحْسَنَ هَذِهِ، فَاكْسِنِيهَا، فَقَالَ: «نَعَمْ»، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا مَهْ أَصْحَابُهُ، قَالُوا: مَا أَحْسَنْتَ حِينَ رَأَيْتَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَهَا مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، ثُمَّ سَأَلْتُهُ إِيَّاهَا، وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّهُ لَا يُسْأَلُ شَيْئًا فَيَمْنَعُهُ، فَقَالَ: رَجَوْتُ بَرَكَتَهَا حِينَ لَبِسَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَعَلِّي أَكْفَنُ فِيهَا [رواه البخاري].

١٤- شجاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَكُتِّمُ وَلَيْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ يَا أَبَا عُمَارَةَ؟ فَقَالَ أَشْهَدُ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا وَلَّى، وَلَكِنَّهُ انْطَلَقَ أَخْفَاءً مِنَ النَّاسِ وَحَسِرَ إِلَى هَذَا الْحَيِّ مِنْ هَوَازِنَ، وَهُمْ قَوْمٌ رُمَاءٌ، فَرَمَوْهُمْ بِرَشْقٍ مِنْ نَبْلِ كَانَتْهَا رِجْلٌ مِنْ جَرَادٍ فَانْكَشَفُوا فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ يَقُودُ بِهِ بَغْلَتَهُ فَنَزَلَ وَدَعَا وَاسْتَنْصَرَ وَهُوَ يَقُولُ: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. اللَّهُمَّ نَزِّلْ نَصْرَكَ»، قَالَ الْبَرَاءُ: كُنَّا وَاللَّهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنْ الشُّجَاعَ مِنَّا لِلَّذِي يُحَاذِي بِهِ - يَعْنِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [رواه البخاري].

١٥- صدقه ﷺ:

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي: «يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ» - لِبُطُونِ قُرَيْشٍ - حَتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهُبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خِيَلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟»، قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»، فَقَالَ أَبُو لَهُبٍ: تَبَّ لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَتَزَلَّتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهُبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝﴾ [المسد: ١-٢]. وشهد بذلك الكفار قبل المسلمين، فكانوا يسمونه بالصادق الأمين.

١٦- توكله ﷺ:

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا غَزَا قَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضْدِي وَأَنْتَ نَصِيرِي وَبِكَ أَقَاتِلُ» [رواه الترمذي، وصححه الألباني].

عن جابر بن عبد الله الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَزْوَةَ نَجْدٍ، فَلَمَّا أَدْرَكَتْهُ الْقَائِلَةُ، وَهُوَ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِصَاهِ، فَنَزَلَ تَحْتَ شَجَرَةٍ وَاسْتَظَلَّ بِهَا وَعَلَّقَ سَيْفَهُ، فَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الشَّجَرِ يَسْتَظِلُّونَ، وَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَعَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجِئْنَا، فَإِذَا أَعْرَابِيٌّ قَاعِدٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: «إِنَّ هَذَا أَتَانِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَاخْتَرَطَ سَيْفِي، فَاسْتَيْقِظْتُ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي، مُخْتَرِطٌ صَلَاتًا، قَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: اللَّهُ، فَشَامَهُ ثُمَّ قَعَدَ، فَهُوَ هَذَا»، قَالَ: وَلَمْ يُعَاقِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

[رواه البخاري]

عن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا فِي الْغَارِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا، فَقَالَ: «مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِثُهُمَا؟» [رواه البخاري].

فضائله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدنيا

١- خاتم الأنبياء والمرسلين:

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو خاتم المرسلين والنبين فلا نبي بعده.

٢- أُعْطِيَ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَنُصِرْتُ بِالرُّغْبِ وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهْرًا وَمَسْجِدًا وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ» [رواه مسلم].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال

تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْبَجُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبَنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبَنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ» [رواه البخاري].

٣- عهد وميثاق:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءِ اتَّيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال علي بن أبي طالب وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه ميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حيٌّ ليؤمنن به ولينصرنه، ويأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه».

[تفسير ابن جرير الطبري، وابن كثير]

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ فَقَرَأَهُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَغَضِبَ وَقَالَ: «أَمْتَهُوْكُمْ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَفْيَةٍ لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكْذِبُوا بِهِ أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي» [رواه أحمد، وحسنه الألباني].

٤- القسم بحياته:

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ما خلق الله وما ذراً وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما سمعتُ الله أقسم بحياة أحدٍ غيره، قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، يقول: وَحَيَاتِكَ وعمرِكَ وبقائك في الدنيا».

وقال العز بن عبد السلام: «ومن خصائصه أن الله تعالى أقسم بحياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، والإقسام بحياة المقسم بحياته يدل على شرف حياته وعزتها عند المقسم بها، وأن حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجديرة أن يُقسم بها لما فيها من البركة العامة والخاصة ولم يثبت هذا لغيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

٥- نداؤه بوصف النبوة والرسالة:

لم يخاطب الله عَزَّجَلَّ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باسمه مجرداً، إما بالنبوة أو الرسالة زيادة له في التشريف والتكريم، وأما سائر الأنبياء خاطبهم بأسمائهم عليهم الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

وقال: ﴿يَنْوُحْ أَهْطِ بِسَلَمٍ مِنَّا﴾ [هود: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَىٰ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا زَيْدُ قَالَ قَدْ صَدَقْتَ الرَّيَّا﴾ [الصفات: ١٠٤-١٠٥].

وقال تعالى: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ [المائدة: ١١٠].

وعندما خاطب الله الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنَكَ

الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ﴾ [المائدة: ٤١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

قال الإمام ابن الجوزي: لما ذكر اسمه للتعريف قرنه بذكر الرسالة، فقال

تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿سُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢].

٦- ذنوبه مغفورة:

قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

[الفتح: ١-٢]

قال العز بن عبد السلام: «من خصائصه أنه أخبره الله بالمغفرة ولم يُنقل أنه أخبر أحدًا من الأنبياء بمثل ذلك؛ بل الظاهر أنه لم يخبرهم؛ بدليل قولهم في الموقف: «نفسى نفسى».

وفي حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الشَّفَاعَةِ، وَفِيهِ: «يَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَلَكِنْ أَتُوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَبْدًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ».

[رواه البخاري ومسلم]

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ كَانَ قَبْلِي غَفَرَ لِي مَا

تقدم من ذنبي وما تأخر» [رواه الحاكم والبيهقي].

٧- حفظ القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

قال العز بن عبد السلام رَحِمَهُ اللهُ: «ومن خصائصه أن معجزة كل نبي تصرّمت وانقرضت، ومعجزة سيد الأولين والآخرين - وهي القرآن العظيم - باقية إلى يوم القيامة، فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يزيدوا فيه كلمة أو ينقصوا منه لعجزوا عن ذلك، ولا يخفى ما وقع من التبديل في التوراة والإنجيل».

[غاية السؤل في تفضيل الرسول]

٨- معجزة القرآن إلى يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ لَّهُ وَإِذْ تَقُولُ لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۚ﴾ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿ [البقرة: ٢٣-٢٤].

فالقرآن أعجز الفصحاء والشعراء والبلغاء فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثل آية واحدة من القرآن، والقرآن من الحروف التي يتكلمون بها، ولا يزال التحدي إلى يوم القيامة، ولا يستطيع أحد أن يأتي بمثل آية منه أبداً.

٩- الإسراء والمعراج:

وقد أشار الله تعالى لمعجزة الإسراء والمعراج، فقال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وقد أشار الله جَلَّ وَعَلَا فقال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَدَلَّى ۖ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۖ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۚ أَفَتُمَدَّنُّهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۚ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۖ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۖ إِذْ يَخْشَى الْسُدْرَةَ مَا يَعْشَىٰ ۚ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۚ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۚ﴾ [النجم: ٨-١٨].

وقال القاضي عياض: «ومما اختص به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن غيره من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ معجزة الإسراء والمعراج، فقد أُسْري به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببدنه وروحه يقظة من المسجد الحرام بمكة المكرمة إلى المسجد الأقصى؛ وهو بيت المقدس بإيلياء في جنح الليل، ثم عرج به إلى سدره المنتهى ثم إلى حيث شاء الله عَزَّجَلَّ ورجع مكة من ليلته».

وقال الإمام ابن كثير: «وأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الآية العظيمة بكرامات كثيرة؛ منها: تكليمه رَبَّهُ عَزَّجَلَّ وفرض الصلوات عليه، وما رأى من آيات ربه الكبرى، وإمامته للأنبياء في بيت المقدس، فدل على ذلك أنه هو الإمام الأعظم والرئيس المقدم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين».

١٠ - إمامته بالأنبياء:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحَجْرِ وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ فَسَأَلْتُنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أَتِبْتَهَا. فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ قَالَ فَرَفَعَهُ اللَّهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَإِذَا مُوسَى قَائِمٌ يُصَلِّي فَإِذَا رَجُلٌ ضَرْبُ جَعْدٍ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَاءَ وَإِذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِمٌ يُصَلِّي أَقْرَبُ النَّاسِ بِهَ شَبَهِا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِمٌ يُصَلِّي أَشَبَّهُ النَّاسِ بِهَ صَاحِبُكُمْ - يَعْنِي نَفْسَهُ - فَحَانَتْ الصَّلَاةُ فَأَمَمْتُهُمْ فَلَمَّا فَرَعْتُ مِنَ الصَّلَاةِ قَالَ قَائِلٌ يَا مُحَمَّدُ هَذَا مَالِكُ صَاحِبِ النَّارِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ. فَالتَفْتُ إِلَيْهِ فَبَدَأَنِي بِالسَّلَامِ» [رواه مسلم].

١١- تزكية الله تعالى له:

زكاه في صدره صلى الله عليه وسلم: فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١].

زكاه في ظهره صلى الله عليه وسلم: فقال تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ٢-٣].

﴿الشرح: ٢-٣﴾.

زكاه في ذكره صلى الله عليه وسلم: فقال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٥].

قال قتادة: «رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي بها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا ذكر الله ذكر معه رسوله صلى الله عليه وسلم».

زكاه في رشده صلى الله عليه وسلم: قال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ٢].

زكاه في أمانته صلى الله عليه وسلم: قال تعالى: ﴿وَمَا يَطِّقُ عَنِ أَمْوَى﴾ [النجم: ٣-٤].

﴿النجم: ٣-٤﴾.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنِّي لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا» [رواه أحمد، وصححه الألباني].

زكاه في قلبه صلى الله عليه وسلم: قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١].

زكاه في بصره صلى الله عليه وسلم: قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧].

﴿النجم: ١٧-١٨﴾.

زكاه في خلقه صلى الله عليه وسلم: قال تعالى: ﴿وَلَنَّا لَعَلَّ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

فضائله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الآخرة

١- أول شافعٍ وأول من تنشق عنه الأرض:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفِّعٍ» [صحيح الجامع].

٢- سيد ولد آدم، وحامل لواء الحمد:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ وَبِيَدِي لَوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمُنَا آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لَوَائِي وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ» [رواه الترمذي وصححه الألباني].

٣- المقام المحمود والشفاعة العظمى:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَيْلَ فَتَهَجِدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

قال ابن جرير الطبري: «قال أكثر أهل العلم: ذلك هو المقام الذي هو يقومه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم».

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّاسَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ عِنْدَمَا تَدْنُو الشَّمْسُ مِنَ الرُّؤُوسِ فَيَبْلُغُ النَّاسُ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يَطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ فَيَذْهَبُونَ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيَشْفَعَ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَيَقُولُ لَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنْ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ»، وَكَذَلِكَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ وَنُوحٌ

وموسى وعيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: «نفسى نفسى»، فيذهبون إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقولون له: يا محمد أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك: ألا ترى ما نحن فيه؟ قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَأَنْطَلِقُ فَأَتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقْعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّجَلَّ ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الشَّأْنِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ؛ فَارْفَعْ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمِّي يَا رَبِّ أُمِّي يَا رَبِّ فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ادْخُلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْإِيمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ» [رواه البخاري ومسلم].

٤- صاحب لواء الحمد؛

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - وَلَا فَخْرَ - وَأَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَمُشَفَّعٍ بِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ تَحْتِي آدَمَ فَمَنْ دُونَهُ» [رواه ابن حبان، وصححه الألباني].

٥- أول من يدخل الجنة؛

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الْجَنَّةِ» [رواه مسلم].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «آتَى بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُسْتَفْتَحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ مَنْ أَنْتَ فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ» [رواه مسلم].

المحتويات

مقدمة ٥

النسب الشريف

تاريخ الميلاد ٦

أسماءه صلى الله عليه وسلم ٦

الكنية ٦

أزواجه صلى الله عليه وسلم ٦

أولاد النبي صلى الله عليه وسلم ٧

صفاته صلى الله عليه وسلم ٧

نكاح عبد الله لأمنة

نور يخرج من آمنة عند حملها برسول الله صلى الله عليه وسلم ٨

مولد النبي صلى الله عليه وسلم وإرضاعه ٨

بركة رسول الله صلى الله عليه وسلم على بني سعد ١١

حادثة شق صدر النبي صلى الله عليه وسلم ١٣

وفاة آمنة وحنان جده عبد المطلب بعدها ١٥

رثاء عبد المطلب من الشعر ١٥

أبو طالب كفيل رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٥

حلف الفضول ١٦

حرب الفجار ١٦

بحيرى الراهب وبشارات النبوة ١٧

حياة العمل ١٩

سفره إلى الشام وتجارته في مال خديجة ١٩

زواجه من خديجة ٢٠

- ٢١ بناء الكعبة وقصة التحكيم
- ٢٤ قصة بناء قريش للكعبة
- ٢٥ معرفة يهود الخبر برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكفرهم به
- ٢٦ سيرته في قومه قبل البعثة:
- ٢٧ بدء الوحي
- ٣٢ بدء الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعوته وأول من أسلم
- ٣٤ إيذاء الكفار لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
- ٤٥ عتبة بن ربيعة يفاوض الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
- ٤٧ أول من جهر بالقرآن عبد الله بن مسعود
- ٤٨ دخول أبي بكر في جوار ابن الدغنة ثم رده عليه
- ٤٨ سبب جوار ابن الدغنة لأبي بكر:
- ٤٩ سبب خروج أبي بكر من جوار ابن الدغنة

الهجرة الأولى إلى الحبشة

- ٥٢ قريش تطلب المهاجرين إلى الحبشة
- ٦٥ إسلام حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
- ٧٥ إسلام عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
- ٥٩ صحيفة قريش الآثمة
- ٦٠ عثمان بن مظعون يرد جوار الوليد
- ٦١ نقض صحيفة قريش الظالمية
- ٦٤ الطفيل بن عمرو الدوسي يسلم ويدعو قومه
- ٦٨ وفاة أبي طالب وخديجة وعام الحزن
- ٦٨ خديجة إلى رحمة الله
- ٦٩ تراكم الأحزان

- الإسراء والمعراج ٧٠
- الرسول يطلب النصر من ثقيف ٧٣
- إيمان الجن عندما يسمعون القرآن ٧٦
- الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعرض نفسه في المواسم على القبائل لنصرته ٧٨
- دعوة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخزرج إلى الإسلام ٧٨

بيعة العقبة الأولى

- إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ٨١

بيعة العقبة الثانية

- الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبايع الأنصار ٨٤
- البيعة على حرب الأسود والأحمر ٨٧
- أول من هاجر إلى المدينة ٨٨
- هجرة أبي سلمة ومحنة أم سلمة ٨٨
- أوائل المهاجرين إلى المدينة المنورة ٩٠

دروس وعبر من هجرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

- قباء مقدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة ٩٦
- الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤسس مسجد قباء ٩٧
- بناء مسجد المدينة ٩٨
- الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤاخي بين المهاجرين والأنصار ٩٩
- موت أسعد بن زُرارة ١٠١
- رؤيا الأذان وإقراره ١٠١
- من ناصب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من اليهود ١٠٢
- فتنة اليهود عند تحويل القبلة إلى الكعبة ١٠٦
- اليهود يكتمون ما في التوراة ١٠٧

- ١٠٨..... النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينذر اليهود بعد غزوة بدر
- ١٠٩..... سعي اليهود بالفتنة بين الأنصار
- ١٠٩..... اليهود الذين حزبوا الأحزاب

أهم غزوات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

- ١١١..... غزوة بدر الكبرى
- ١١٥..... المبارزة والقتال
- ١١٦..... مقتل أبي جهل
- ١١٧..... يوم الفرقان
- ١١٨..... قتلى الفريقين
- ١١٨..... غزوة بني قينقاع
- ١٢٠..... جلاء بني قينقاع
- ١٢٠..... غزو أحد
- ١٢٢..... المبارزة والقتال
- ١٢٤..... هجوم المشركين على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإشاعة مقتله
- ١٢٦..... موقف عامة المسلمين بعد التطويق
- ١٣٠..... غزوة الخندق أو الأحزاب
- ١٣٥..... غزوة الحديبية
- ١٣٨..... بعث مؤتة
- ١٤٠..... غزوة فتح مكة
- ١٤٨..... غزوة حنين أو غزوة هوزان
- ١٥٢..... غزوة تبوك
- ١٥٤..... حديث الأفك
- ١٥٩..... حجة الصديق وتواتر الوفود وبعث الرسل

- حجة الوداع ١٥٩
- مرض و وفاة الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٦٢

أخلاقه العطرة

- ١ - حسن خلقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٦٥
- ٢ - عبادته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٦٦
- ٣ - خشيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٦٧
- ٤ - رحمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٦٨
- ٥ - عفوه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٦٩
- ٦ - صبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٧٠
- ٧ - رضاه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٧١
- ٨ - تواضعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٧٢
- ٩ - زُهدُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٧٣
- ١٠ - ورَعُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٧٤
- ١١ - وفاءُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٧٤
- ١٢ - إنفاقُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٧٥
- ١٤ - شجاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٧٦
- ١٥ - صدقُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٧٧
- ١٦ - توكُّلُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٧٧

فضائله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدنيا

- ١ - خاتم الأنبياء والمرسلين ١٧٨
- ٢ - أعطيَ خمساً لم يعطهنَّ نبي ١٧٨
- ٣ - عهد وميثاق ١٧٩
- ٤ - القَسَمُ بحياته ١٧٩

- ٥- نداؤه بوصف النبوة والرسالة: ١٨٠
- ٦- ذنوبه مغفورة: ١٨١
- ٧- حفظ القرآن الكريم: ١٨١
- ٨- معجزة القرآن إلى يوم القيامة: ١٨٢
- ٩- الإسراء والمعراج: ١٨٢
- ١٠- إمامته بالأنبياء: ١٨٣
- ١١- تزكية الله تعالى له: ١٨٤

فضائله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْآخِرَةِ

- ١- أول شافع وأول من تنشق عنه الأرض: ١٨٥
- ٢- سيد ولد آدم، وحامل لواء الحمد: ١٨٥
- ٣- المقام المحمود والشفاعة العظمى: ١٨٥
- ٤- صاحب لواء الحمد: ١٨٦
- ٥- أول من يدخل الجنة: ١٨٦

تم بحمد الله